

رجب أبو سربة

# عطر البحر

و روايات أخرى



عطش البحر

## تقديم

بعد حلم أفلت مني في الصباح، بقيت أياماً في حالة القلق، لا أرى أمامي سوى فتى وجدّه، يقفان في حالة انتظار، يلحّان علي في كل لحظة.

لم يكن لي من خيار إذاً إلا أن أواجه الرعب والورق، حيث تتكرر الحالة كل ليلة.

الولد يثب أمامي، تلهث أنفاسه، يتأمل البحر، ينتظر ويتحرق شوقاً. يود لو يقول كل شيء بسرعة، مخافة أن أهرب منه، أو أن لا يسعفه الوقت. ما كنت أعرفه أبداً، لكنني كنت أحس به كشيء خانق، يحز أعصابي بسكين مثلومة.

رعب المواجهة العارية للورق، وضغط حالته على مشاعري، كل ذلك على قسوته كان أمراً لا بد منه في الوقت الذي بدا لي فيه، أنه من المستحيل أن أتجاهل هذا الفتى الذي تلبسني ليالي، تقطعت فيها أعصابي.

## أفق المستحيل

تناثرت النتوءات الحادة الدكناء على الشاطيء الصخري، حتى بدت كدبابيس ألقى بها كف ساخرة آلمت قدميه العاريتين ثم حرمة متعه مواصلة السير، فكان أن ألقى بجسده على أول صخرة صادفته، جلس يتأمل المدى المائي الممتد أمام ناظره، كعادته التي رافقته طوال أيامه الماضية. كانت الأمواج تتلاحق دونما كلل وتنتهي بأن تصطدم بحافة الشاطيء، ثم تعود في محاولتها التي تبدو كأنها تعبر عن رغبة البحر الأزلية في التحرر من جوف الحفرة الهائلة التي فرضت على الماء أن يبقى أسيرها منذ الأزل، بدت له الأمواج كغريق يحاول... ويحاول أن يصل بر الأمان. إنه العشق الأزلي لليابسة، يجمع الماء قوته فيندفع، يلطم الصخر ويحاول الإفلات من جاذبية القعر، لكن دون جدوى!

ظل يراقب الموجات المتلاحقة ثم تنهد من أعماقه فامتألت رثاه بالهواء الرطب، لا شيء يلوح في الأفق، ولا صوت سوى تلاطم الأمواج بحافة الشاطيء، وبريق النجوم الذي يتلألأ على صفحة الماء، ثم لا يلبث أن يتلاشى في القاع المظلم. أصاخ السمع فوصلت إلى أعماقه همهمات الأسماك وهي تمارس طقوسها في الحياة رغم ما يحيط بها من ظلام، حتى رأى ألوانها، أشكالها، أنواعها، ملاحقة ذكورها إنائها، تذكر "السلمون" وجنية البحر... ماذا لو خرجت له الآن؟

تطلع إلى المدى مرة أخرى، عساه يرى شيئاً ما، إنه مازال يحتفظ بقواه العقلية التي تمنعه من أن يرى الوهم! الوهم؟ هل بدأ اليأس يتسرب إلى داخله إذاً؟

تساءل في أعماقه، لكنه لا بد أن يأتي، كل الذين أتوا إلينا بأخباره كانوا يؤكدون لنا ذلك، أمي... جدي لا يملّون أيضاً من الانتظار، أتراهم ينتظرون عودتي الآن؟ لكن الوقت مازال باكراً حتى أعود... ترى كيف هو؟

طويل القامة؟ مفتول العضلات؟ وسيم الطلعة؟ ربما أن الشعر الأبيض قد بدأ يغزو رأسه؟ ماذا يفعل الآن؟ أهو جالس مثلي على حافة البحر من الطرف الآخر يفصل المدى بيننا؟

أم تراه بدأ منذ لحظات في التجديف وما هي إلا ساعات أو أيام ويبدأ الشبح/الوهم في اكتساء العظم واللحم فيفاجئني بأن ينتصب أمامي على صهوة الموجة الآتية من بعيد؟

البحر هذا الحصان الجامح لا يسلم صهوته إلا للرجال، فهل خلت الدنيا من الرجال الذين يحسنون امتطاء الموج؟

غاص السؤال في أعماقه، ثم تابع: كل شيء بأوانه، لكن غيبتك قد طالت أيها الرجل، وأنا مازلت صغيراً، أحلم بأن تأخذني كالأخرين في حضنك وتعلمني امتطاء الموج... جدي؟ إن يديه ترتعشان وما عاد يقوى على مصارعة الموج... وأنا غض العود بحاجة إلى من يعلمني... أن حضن الأم دافئ كما أن صدرها حنون ولكنه لا يصنع الرجال.

رائحة "الزنج" بدأت تصفع أنفه، وبرودة الطقس تصطك بجلده، فتدفعه إلى أن يبدأ التفكير بالعودة إلى البيت، ولكن ماذا لو جاء بعد لحظات من عودتي؟

سيرتطم حينها بحافة الشاطيء، ثم يتلاشى كالموجة التي تتفتت في اللحظة أمام عينيه، فتنخفض ثم تغرق في الماء، تجيء أخرى... يمد يده لينتشلها من لجة الماء، لكنها لا تلبث أن تتراجع إلى الخلف وكأن قوة ما تجذبها من قدميها إلى القاع، حاول مع أخرى وأخرى وظل يحاول إلى أن استبد به التعب، ومنذ هذه اللحظة اعتبر نفسه صديقاً للموج، لا بد أن تأتي واحدة تكون قد أعدت نفسها جيداً، حينها سيتمكن من أن يقبض على ذراعها وينتشلها إلى شاطيء الأمان.

ما زال السكون يملأ الكون من حوله، حتى شعر وكأنه الإنسان الوحيد في هذا العالم، يتوقف الزمن عند هذه اللحظة، ليتمكن من تذكر ما مضى ومن تخيل ما سيجيء... والسكون بقدر ما يكون مريحاً للأعصاب، أو هكذا يبدو له، فهو مدعاة للترقب، حتى باتت المهمات التي تأتي من بعيد مسموعة إليه تماماً، قد لا تكون بنت اللحظة، قد تكون حدثت قبل أيام، أو أنها ستحدث فيما بعد... لا فرق.

العاطفة الطرية لم تأخذ طريقها إلى قلب الفتى بعد، ولكن ثغرها الذي يفرج كل صباح عن: صباح الخير، لا يستطيع نسيانه، لا يدري لماذا؟ ولا يفكر في الأمر كثيراً لكنها تخطر على باله على كل حال.

- لقد غدوت شاباً يا حبيبي

هكذا قالت له أمه، صباح هذا اليوم، أما هو فإنه يحاول من أعماقه أن يوقف زحف السنين، يخشى على طفولته أن تنقضي دون أن يعود إليه فارس الأفق فيضع كفه الصغيرة في يده، ويرافقه إلى البيارات، ويسير معه في الأزقة يباهي به أصحابه. هل يمكن لطفولته أن تنقضي هكذا، دون يد قوية حانية تربت على جبينه؟ وتكافئه في نهاية العام على تفوقه في المدرسة؟ أيعقل أن تنقضي طفولته هكذا في اليتيم؟ وما الجدوى من أب غائب وما الفرق أن يكون أبوك ميتاً أو غائباً ولا يعود؟

ود لو صرخ من أعماقه على صفحة الماء، عسى أن يصل الصوت إلى هناك، ود لو كان عصفوراً لطار إلى ما وراء الأفق، ود لو كان جنياً، عفريتاً، شيطاناً... لكنه والبحر والخيالات العvisية!

حين كنت جنيناً، كان يضع يده على بطني، يتلمس حركاتك الأولى، فتملأه السعادة ويقول: يا سلمى قلبي يحدثني أنه ولد، نسميه خالد، ما أن يجئ حتى نبدأ بالآخر، أريد "دزينة" من الأولاد، تركلني، فينقلب على ظهره من الضحك، أرايت. له رأى هو الآخر!

يتكور الفتى حتى يعود إلى بطن أمه، ينتظر أن تمسد جبينه كف أبيه، يمر النسيم البارد على وجنتيه، فينتبه إلى أن الطقس قد بدأ بالبرودة. تقترب شيئاً فشيئاً جلبة معتادة لديه، لكنها تنبهه لضرورة أن يعود أدراجه. يقترب من الماء، ثم ينزل إليه برفق حتى يصل البلبل إلى خاصرته، يهمس في أذن صديقه "السلمون" يوصيه بترقب الشبح الذي سوف يأتي، يفعل هذا كل يوم، ثم يدير ظهره ورقبته ويعود متثاقلاً إلى البيت.

أنوار خافتة وبقايا من حياة، رجل يمر على عجل، المحال مقفلة، وأصوات التلغاز تأتيه عبر النوافذ الخجلى، يحث الخطى، وفي لحظات يدخل البيت يلقي التحية على أمه وجدته، ثم يجلس. تتطلع الأم إليه ولا تنفوه بكلمة ثم تنهض. أما الجد فيحنو عليه، ويوصيه أن ينام مبكراً ليرافقه في الصباح.

يتناول عشاءه ثم يأوي إلى الفراش، الصورة في إطارها كما هي منذ عشرين عاماً، ما زالت الذقن حليقة، والشعر أسوداً، وجلد الوجه مشدوداً، والشارب منتصباً، والعينان براقتين والابتسامة لم

ترتخ بعد. يتطلع إليه، يعاتبه , يهم بالحديث، لا لن أقبل أذاراً، عشرون عاماً تكفي، إننا في الجحيم هنا والبحر ملّ رائحتي، وأنا... لم يقو على نطقها حتى وهو غاضب، أغرورقت عيناه، ثم اندس في الفراش.

- تصبح على خير

ما أن ابتلع البحر قرص الشمس، وأنتشر على صفحته ما تبقى من أشعتها الحمراء الغامقة، التي بدت كأنها بخار دم، وبدا الكون بأسره يستعد للبس الثوب الأسود حداداً على الشمس الذبيحة، حتى توجهت مجموعة من الرجال لم يتبين الفتى ملامحهم باستثناء واحد كانت تتدفق الرجولة في عضلاته ويشرق الضياء من وجنتيه، رجل طالما انتظر رؤيته، يشبه الصورة المعلقة أمامه على الجدار.

لم تضيّع المجموعة كثيراً من وقتها، فقد دفعت من فورها قارباً مطاطياً إلى شاطئ الماء , تغالب موجاته الناعمة، وما هي إلا لحظات حتى كانوا يقفزون واحداً أثر الآخر إلى داخله، ثم يبدأون بالتجديف باتجاه البعيد. كان الرجال يغنون العتابا ويمرحون، أما هو فكان يراهم يقبلون نحوه، وكأنه يراهم في عدسة مجهر، حتى خال نفسه مارداً ينتصب في عرض البحر الذي بدا له ليس أكثر من هواء كثيف أو غمامات ضباب غطت الأرض ومنحت الدنيا شفافية خاصة، رائعة الجمال.

كان القارب ينساب بهدوء تدفعه الموجات الناعمة، حتى إذا ما خيم الظلام كان النغم يشق حالة الصمت والسواد، فيحدد ملامحهم، فلا تغيب عنه طلة الرجل الضاح بالرجولة والوسامة والذي يشبه ذلك المؤطر، المنتصب على الجدار.

ساعات طويلة قضاها وهو مستمتع بمنظر القارب والرجال الذين يمتطون سهوته إذا ما تسارعت شيئاً فشيئاً سرعة الرياح، وعلا ارتفاع الموج، حتى إذا ما ارتفع الصوت الناجم عن ارتطامه بالمطاط، وانخدشت أنغام العتابا، شعر بالضيق، وتمنى لو أنه كان ملكاً للرياح لأمرها من توه أن تعود إلى حالها الأولى نسيماً هادئاً، يدفع القارب بثبات إلى مبتغاه. لكنه ما كان الملك، فهورول إلى الشاطئ يمد ذراعه ليسحب الموج أو يفلق البحر، لكن المسافة بينه وبينهم كانت ما تزال بعيدة فظل يراقبهم وهم يصارعون الرياح والأمواج التي بدت كوحش يفتح فاه ليبلع القارب الذي غدا ككرة تتقاذفها أقدام اللاعبين.

تهدر الموجة فتصطدم بالقارب، يتشبث به الرجال إلى أن تنفلت وتذهب، فيندفع القارب ليصطدم مرة أخرى بموجة ثانية وهكذا، والموج لا يهدأ يسعى للنيل من الرجال!

إلى أن جاءت لحظة اشتدت الحلكة فيها وثار ت الریح فاندفعت الأمواج التي تلاحقت ولم تجد في طريقها سوى القارب، جرفته في طريقها، فانقلب وتبعثر الرجال كل في اتجاه يجدف بيديه ويصارع حدة الماء الذي انقلب إلى وحش فتاك.

\*\*\*

صحا على جلبه جده وهو يتمم بصوت مسموع في الهزيع الأخير من الليل الذي تهكت ظلمته بفعل ما تسرب من ثناؤبات الصباح، دعاءات الوضوء، تكوّر على نفسه ورغب في إغفاءة أخرى

بأحضان الفراش الدافئ، لكنه كان يعلم أن جده لن يمهله سوى لحظات ينتهي فيها من الصلاة، ثم يجيء إليه فيحنني على جبينه، يمسد وجنتيه صائحا:

جدي... جدي... خالد أصحا يابوي!

فتمنعه اللمسات الحانية والكلمات الدافئة ذات السحر العميق على نفسه من أن يبالغ في التردد، فينهض ملقياً تحية الصباح على جده، ثم يقبل يده ويتوجه إلى باحة الدار فيلطم وجهه بالماء، فيما تكون أمه قد أعدت كل شيء، الزوادة والحمار الذي يمتطي ظهره خلف جده إلى الحقل.

وفي الطريق تتغير الأيام ولا تتغير حكايا الجد، ورغم تكرار الحكايات إلا أن الولد لا يملأها، ينصت ويسمع باهتمام فيتخيل كل ما كان: القرية، بيوت الطين، "طرش" الأغنام الذي كان لجده، حقول القمح وأيام الحصاد، شجيرات التين والصبارة، "القرص" المعجون بالسمن البلدي الذي كانت تعده جدته لأبيه، الحليب اليومي الطازج، حتى تفاصيل عرس أبيه وأمه تخيلها تماماً وكأنه كان حاضراً! وكان كلما اندفع جده بالحديث ألتصق به فيكتشف تسارع دقات قلبه حين يجيش للذكرى.

- خالد، كل ما أتمناه يا ولدي، أن ترى بلدنا وأن تعيش فيها.

فيرد عليه الفتى:

- وأنت يا جدي ألا ترغب برويتها؟

- أنا -إن شاء الله- لكن يا مين يعيش!

ويلكز ظهر الحمار بعصاه كأنه يهرب من شيء ما، لعلها الذكرى ثقيلة الوطأة على نفسه المتعبة؟

ثم بعد لحظة يقول وكأنه يحدث نفسه

- الله يرضى عليك يا ابني يا محمود، بس لو أعرف وين أراضيك؟ الله يسامحك على كل شيء.

وتظفر من عينيه التي ما عادت ترى بوضوح دمعة لا يراها الولد الذي ما أن يسمع اسم أبيه حتى يصير في مكان آخر، يدور برأسه، ثم يدور... ويدور، يبحث له عن اسم، يتوقف فجأة:

ألن تكف يا خالد، حتى أنت نفسك ما عدت قادراً على أن تقنع نفسك، كنت صغيراً، وكانت أمك في البداية تخرع لك الإجابات التي تنقلها إلى زملائك في المدرسة، ثم بعد أن كبرت قليلاً، صرت تخرع الإجابات بنفسك، وما من ضير، فكل الأماكن تتشابه، وما الفرق بين أن يكون أبوك في عمان أو بيروت أو في تونس؟ ما الفرق بين أن يكون في بكين أو برلين أو شيكاغو؟

وما الذي تستفيده أنت من ذلك؟ يراه كل الناس إلا أنت؟ تحضنه الأزقة أو تلقيه ككلب، أما أنت فتقضي عمرك تحلم بأن تمس شيئاً غير الخيالات! إنه بالنسبة لك ليس أكثر من خبر، تنقله لك أفواه ملثمة لاتتبين ملامحها لو أنه مازال حياً، رآه أحدهم قبل عدة أشهر في مكان ما! لو إنه مات لاسترحنت! ولكنك رتبت أمورك على هذا الأساس! يختلج كيانه الغض لمجرد خاطر الذي جال لحظة في ذهنه، لا ما أتعس أن تكون يتيماً يا خالد، حتى لو كان أبوك مجرد طيف.

يلكز الرجل العجوز خاصرة الحمار، فيهرول وهو ينهق، تصفع الريح منخريه اللذين يفتحهما على إتساعهما، فيما حوافره تضرب سطح الإسفلت فتعطي إيقاعاً يחדش هدأة الصباح الذي بدأ يصحو

مع أشعة الشمس في فصل الربيع، فيما الأفق بدأ ينبثق عن أرض أخصبها المطر شتلات الزرع الخضراء الذي بدا كلوحة منبسطة تزينها بقع الحنون المتناثرة هنا وهناك.

خالد يهوى هذه الخطرات الصباحية المبكرة مع جده، رغم رتابتها مع تكرار الأيام، ويرتاح كثيراً للسكون الذي يلف البستان، ويعشق القيلولة بعد ساعات العمل الأولى من النهار، وفي الطريق إليه يتطلع دائماً إلى التلة الوحيدة التي تنتصب إلى الشرق من المدينة تتاخم الحدود، بين الأرض والأرض، بين مرحلة وأخرى، لكنها على كل حال لم تعد الآن حدوداً، فقد أزالها الاحتلال، وما زال يتمنى أن يفلت يوماً وينطلق إليها، فيقترب من السماء ليهمس شيئاً ما في أذن الرب!

بين الحكاية والأخرى تسود برهة من الصمت بينهما، فتكون مناسبة ليتأمل كل منهما، الجد في ذكرياته والفتى في أحلامه التي تمتد أمامه، ضبابية، لا يكاد يقبض منها على شيء. حتى إذا ما وصلا البستان أوقف الرجل العجوز حماره ونزل من على ظهره، ثم مد يده إلى الفتى الذي ما يلبث أن يستند إليها قافزاً إلى الأرض، ثم يقوم بربط الحمار بعمود "العريشة"، ويقوم بإنزال "الخرج" الذي يحتوي زوادة الطعام وإبريق الماء ثم يتوجه من فوره "فيجز" بعضاً من النجيل ويلقي به أمام البهيم.

ثم ينطلق الرجلان بفرح إلى شتلات البندورة والخيار والفلفل والكوسا والبامية، فينكشان التربة الطرية من حولها، ويتلمس الرجل العجوز أوراق النبات الغض بحنان بالغ وينتظر كل يوم أن تكبر وأن تبدأ بطرح الثمر، حينها يبدأ الفتى بجنيها في صفائح دُقت على حافتها قطعة من الخشب، ثم يكومنها في "العريش" وحين يشتد طرح الثمر، وقت أن ينتصف فصل الصيف تحضر الأم لمساعدتهما، فيجمعون الثمر في صناديق الخشب، ويرصونها في العربة الخشبية، حيث يجرها الحمار إلى السوق.

كل عام يتكرر موسم الزرع، في الصيف يزرعون الخضار، وفي الشتاء القمح والشعير الأمر الذي يعود عليهم بعشرات الجنيها، التي تسد احتياجاتهم في الحياة إلى جانب ما يحصلون عليه من طحين وسمن وزيت وسكر وأرز من الهيئة الدولية، وتجمع الأم ما يتوفر لديها من نقود تضيف إليها ما تحصل عليه من الأعياد من أخوتها وأبناء عمومتها وأعمامها وأخوالها، وتنتظر يوماً تفرح فيه بعرس خالد!

أما الولد الحالم الذي لا يخلو من ذكاء، فكان حين يخلو بنفسه أو بالبحر يتطلع إلى المدى، ويرقص في داخله موال حزين، فترتعش أعصابه للنغم، وتتأثر قريحته بالكلام الجميل، فما كان أحب إلى قلبه من سماع مواويل العتابا أو قراءة الشعر.

عندما اقترب النهار من الانتصاف واعتدل قرص الشمس فوق رأسيهما صاح العجوز بالفتى أن يتوقف عن العمل، وسبقه إلى "العريش" حيث ألقى بجسده النحيل المتيبس، وألقى بساعديه باسترخاء وأخذ يتنفس بعمق ويمسح حبات العرق التي تدرجت على جبينه. بعد لحظات كان الفتى ينضم إليه مبتسماً:

يعطيك العافية يا جدي.

- والقائل.

رد العجوز الذي تحرك بعد ذلك ومد يده إلى "الخرج" الملقى في زاوية "العريش"، وفتحه، ثم أخرج منه "صرة" الملح وحبات البندورة وقرن الفلفل الجاف، ثم بدأ بطحنها في صحن الفخار، بينما كان الفتى ينهض ويشعل ناراً في أعواد من القش الذي لم يجف تماماً، وبدأ بإعداد الشاي.



تناول الرجلان طعامهما، وحين فرغا، رفع العجوز إبريق الماء، وكرقع بصوت مسموع الماء البارد في جوفه، ثم تمدد وتوسد يده مهيباً نفسه للقبولة أما الفتى فانتحى جانباً آخر من "العريش" وتمدد هو الآخر، وكان يرغب في الحديث مع الجد، لكنه كبت رغبته تاركاً له المجال ليرتاح.

تأمل الفتى ملامح جده، كوفيته المعفرة بالغبار والملتفة على رأسه، قمبازه المقلم المتسخ، تضاريس وجهه الحادة التي انطبعت بين ثناياها حكايات السنين، أطرافه الناحلة التي ترتعش وهي تقترب من حبات التراب ونباتات الزرع الأخضر، كبرياءه الذي هدّته السنون والأنواء، آلامه التي يكتمها ولا يبوح بها، عمره الذي صار ذكري، وحدته القاتلة...

هذا الهرم الذي أمامه، والذي مازال يراه على هذه الهيئة منذ بدأ يعي الدنيا، كان شاباً فيما مضى، هذا أكيد، وكان يضج بالشباب والسعادة، وكان يقود قطيع الأبقار إلى رؤوس الجبال الشاهقة، ويلتحم بالمدى خالي الذهن، مرتاح البال، يرافق شبابه، يصارع الليل ووحوش البرية، لا يحد الأفق خياله الرحب، يسابق الريح على صهوة "صباحة" يرقص بالسيف ويسامر الجن في الأعراس. كانت الكلاب تشيع مما تبقى من لحم ولائنا، هذا ما يقوله حين يتذكر تلك الأيام التي خلت، ويرى هذه الأيام التي يشح فيها الطعام!

حين كان يهُل علينا الضيف كانت تتناوب عليه بيوت البلد بالغداء والعشاء، حتى ينقضي الشهر، ولم تكتمل ضيافة البيوت، أما الآن فإننا نذوب في ثيابنا حين يجئ الغريب. أية أيام هذه التي جارت عليك أيها العجوز؟

كنا بعد مواسم الحصاد، نحمل الغلّة ونذهب إلى يافا حيث المسارح والمقاهي والأسواق، فنشترى القماش والعطور والحلي لزوجاتنا. ونحدثهن طوال الليالي عن عجائب المدينة الساحرة، عن "الأثوموبيل" الذي يسير على عجلات!

وعن النساء اللواتي يحسرن عن وجههن الغطاء، وعن الصندوق الذي يغني! وعن وعن...

كانت الدنيا غير الدنيا وفجأة صارت الحرب، بعث اساور زوجتي وأشتريت بارودة وانضمت إلى الثوار، نقطع الطرق على الإنجليز ونهاجم مستعمرات اليهود، وحين اشتدت رحى الحرب، قالوا:

هدنة، كنا فلاحين لا عهد لنا بفنون السياسة والأعيبيها، "وهوب" صرنا لاجئين.

- أتدري يا خالد لو بعد ألف عام، سيجيء جيل يعرف كيف يقاتل، ويتمكن من إعادة الحق إلى نصابه، كل ما بداخلي يقول هذا، كل ما تعلمته في حياتي يقول هذا، منطق الحياة يقول هذا، المهم أن لا نفقد إيماننا بالله.

هل يعني هذا أن أنتظر أبي ألف عام؟ أيمن أن يكون قد تزوج وأنجب خالداً آخر ونسبني؟ لم لا؟ هل يعقل أن يظل وحيداً؟ لكنني وحيد دون أب، فلماذا لا يحتمل مثلي أن يظل دون ابن، وأمي ما زالت تنتظره دون زوج!

فلماذا لا يبقى دون زوجة! هو بإمكانه أن يكون أباً، أما أنا فكيف لي أن أجئ لي بأب؟!

التساؤلات ترهق الذاكرة، فشغل نفسه عنها بأن أخذ يراقب سقف العريش المكون من العيدان اليابسة، وحزم الزرع مع بقايا قطعة من قماش خيمة مهترئة تأمل حركة النسيم الخفيف حين يهز الزرع الفتى، فيثير فيه الحركة التي تبقى فيه الحياة، باستثناء هذا الحفيف يكاد يطبق الصمت في المحيط، ارتخت ذاكرة الفتى فأطبق جفنيه ونام.

\*\*\*

كانت أم خالد رغم الشحوب الذي يعلو وجنتيها، امرأة لا تزال على قدر من الصبا، تقاوم زحف الأيام في محاولة للاحتفاظ بجمالها حتى يتمتع به الزوج العائد يوماً دون شك، وهي رغم مقاومتها التي أبقت على أنوثتها إلا أن للأيام سطوتها أيضاً، إنها الآن امرأة في منتصف العمر، ولم تعد تلك العروس الفتية التي كان يزيد بها التفاف زندي زوجها حول خصرها إثارة وروعة. بدأت الآن بعض الشعيرات البيض تغزو مفرقها وبعض التجاعيد ترتخي حول عينيها أما طقوس الأنوثة فتكاد تكون قد نسيتهما، رغم أنها لا تكاد تفوتها ليلة واحدة لا تحلم فيها بالزوج يفتحم جسدها ويفجر أنوثتها البكر في أول ليلة انغلق بابهما عليهما معاً!

لم تعرف من الدنيا كلها إلا رجلاً واحداً، هو ابن عمها محمود الفتى الذي عاش حياته كالخيال، مرّ عابراً ومضى عابراً أيضاً، وتكاد هي أيضاً لا تتعرف على ملامحه إلا من خلال الاطار والطياف الذي يجيئها في المنام.

الذكورة كلها تتلخص عندها في واحد، لا يمكن أن تسمح لخيالها أن يمضي مع أية نظرة تشوبها الرغبة وتستقر في أعماق الأنوثة العطشى، لكنها تنتبه أحياناً إلى أنها حين تخلو وإياه في ظلمة وحدتها، لا تخلو لهجتها من عتاب فقد طالت الغيبة، طالت كثيراً غيبتك يا محمود، لو تجيء يوماً وتمضي، لو تركب الريح أو تمتطي الموج وتأتي، يوماً واحداً فقط، نبل الشوق منك، تكاد أن تجف الروح في غيابك، ويتوقف القلب، وتخد الأنفاس، فلماذا لا تجيء ولو حتى متسللاً في جنح الظلام، لو راكضاً... لو ذليلاً... لو ميتاً... أن تكون بيننا بأي شكل، خير من أن لا تكون.

عشرون عاماً تتذكرها أم خالد ليلة بليلة وساعة بساعة، في كل لحظة يترأى لها الخيال، ينن في جوف الظلام، تركض إليه فيختفي، تتفحص وجوه كل الرجال فلا ترى مرادها، الفراغ يقتلها والوحدة حبل يلتف كل لحظة حول رقبتها، فتندفع إلى البيت ترتيباً وتنظيفاً، تطبخ وتغسل وتنظف وحين تنتهي تجلس تحت الدالية تحيك الصوف... ما أكثر ما حاكت من الكنزات لخالد ولجده العجوز، وللغائب أيضاً الذي لا يفارق البال.

يدق الباب فلا تنتبه للدقة الأولى، بعد توالي الدقات تنهض وتفتح، فيطل البدر عليها، تأخذها بأحضانها وتدخلها، وتهمس لها كعادتها دائماً:

- ما أموت ولا أفوت إلا وألاقيكي عروساً في بيتنا.

تخجل الصبية وتطرق رأسها، ثم تضع صحن "المفتول" في المطبخ وتجلس بجوار خالتها، التي لا تكف عن احتضانها وتقيلها، ثم تحمق في وجهها وتعود بذاكرتها عشرين عاماً حين كانت بعمرها.

\*\*\*

لم يكن ما نامه أكثر من اغفائة عابرة، استجابت لما يثيره الطقس الربيعي من خدر في النفس، وما تتركه النسومات الوداعة من ارتخاء في الأعصاب، فتح عينيه وبقي يتأمل زرقة السماء فرأى كتل رذاذ الماء التي تحلق عالية في الفضاء كطائر يحمل أحلامه التي ما توقف عن بثها طوال السنوات الماضية، وتمنى لو أنه انتبه لتلك الملاءة البيضاء التي تتحرك في المدى العالي أمام ناظره، "وتشعلق" بها، حيث يمكن أن تقله إلى حيث يرى الحبيب!

تململ الشيخ بجواره وقد بدأت الشمس تميل بقرصها إلى الغرب، فتذكر حكايته مع الهنود التي رواها له يوماً، حين جاؤوه عطشى في عز الصيف وطلبوا منه عبر الإشارة، أن يعطيهم الماء، فنالهم إبريق الفخار الذي شربوه على عجل، ثم ما كان منه إلا أن ذهب يبحث بين النبات عن أكبر بطيخة جاءهم بها، فكسروها، وكانوا يجرفون بأيديهم ما بداخلها ويلتهمونه في شهية جارفة، وهو يراقبهم بارتياح. كان الشيخ يحبهم دوناً عن قوات الطواريء، لما كان يسمع عنهم من كونهم حلفاء جاؤوا من بلاد الهند الفقيرة، حالهم مثل حالنا، هذا ما كان يردده وهو يروي له الحكاية.

تأمل الفتى الشتلات، وتذكر دورات الزراعة السنوية، فخطر بباله خاطر قلبه في ذهنه، ثم اتخذ قراراً، عزم على تنفيذه في اليوم التالي.

صحا الشيخ فألقى ابتسامته العريضة إلى الفتى، ثم استند إلى ساعديه ونهض ثم تناول إبريقاً معدنياً وابتعد عن "العريش" حيث قضى حاجته، وتوضأ وعاد إلى حيث ألقى حصيرة القش تجاه القبلة، وشرع يصلي العصر. بعد أن انتهى من الصلاة أكثر من دعائه المعتاد على المحتلين، ودعا أن يوفق الله قرة عينه وأن يرزقه ببنت الحلال والخلف الصالح، ثم بدأ الرجلان بعد أن قاما بجولة على النبات، يقلعان شوكة هنا أو عشب هناك، رحلة العودة إلى البيت.

ما أن وصل الرجلان البيت حتى كانت أم خالد، تنهض من فورها لإعداد طعام العشاء، وإن كانت هذه المرة لم تجهد نفسها كثيراً، لأنه كان جاهزاً منذ العصر، منذ لحظة مجيء سميرة حاملة طبق "المفتول"، فما كان عليها إلا أن قامت بتسخينه وإحضاره حيث جلس الرجلان في باحة الغرفة التي ينام فيها الرجل العجوز.

- يا الله... قولوا باسم الله.

صاحت، وما كادت تضع اللقمة الأولى في فمها حتى أردفت قائلة وهي تغمز بعينها وتبتسم وتنظر إلى ابنها:

- تسلم إيديها يا حبيبتى يا سميرة والله يجعلك من نصيبنا.

هز العجوز رأسه، ولم يعلق الفتى، وانهمك الجميع بتناول الطعام اللذيذ.

في ذلك المساء ظل الفتى ساعاتٍ طويلة ساهراً يراقب القمر والنجوم ويرى صورة الاطار تتوسط القمر المضيء، الذي غدا كمرأة، أو كقمر صناعي يعكس صورة الرجل الذي يجلس في مكان ما، ثم يبتها إلى الفتى الساهر، فيحلق فيها، ثم ما يلبث أن يبوح لها بمكنونات صدره. أبي لقد حصلت على الثانوية العامة هذا العام، كما تعرف؟ أكيد أنك تعرف، صحيح لم أحصل على معدل جيد لكنني في الحقيقة حائر، هل أوصل تعليمي وأذهب إلى الجامعة، ولكن أية جامعة تلك التي يمكن أن أذهب إليها؟ أذهب إلى مصر؟ الأردن، سوريا، ليبيا؟ الجزائر؟ أم أذهب إلى الخارج؟ ولكن من سيتدبر أمر مصروفي؟ حتى إذا ما قررنا معاً، نعم نقرر معاً، أن أذهب فلا بد لي من منحة دراسية هذا أولاً وثانياً من واجبي أن أعيل أمي وجدي. حتى لو شجعاني على ذلك، لا بد أن يشعروا بالغرابة لغيابي، هذا أكيد،

فمن لهما سواي يقيم بجوارهما، يؤنس وحدتهما، أنا أفضل أن لا أذهب يكفيننا أنت... ولكن ما بالك لا تجيب؟ يتكدر الفتى لصمت الوالد، فتغيب الصورة عن وجه القمر.

\*\*\*

في طريق عودتها استرخت الفتاة بفرح عذب، صامت وخجول، كلمات خالتها التي تعودتها منذ فترة طويلة، لكنها تعودت لها تأثيراً مختلفاً منذ أن بدأ صدرها بالبروز ومؤخرتها بالاستدارة، تتحول الكلمات إلى أجنحة تحملها مع الريح إلى بيت صغير ممثليء بالدفء والرجولة، تنتظر فيه ككل النساء عودة رجلها في المساء بأحضانها الدافئة وشهوته الحلال... ثم لا تصحو إلا والبيت يغص بالأولاد الذين يجيئون واحداً وراء الآخر، حتى ينقلب إلى جحيم بهم، لكنه جحيم عذب... ثم وإذا بها امرأة عجوز، إبيض شعرها وتساقطت أسنانها وصارت جدة تحكي الحكايات للأحفاد في ليالي الشتاء.

كلمات خالتها وضعت حداً للقلق الذي كان يمكن أن يرافق الفتاة -أي فتاة- حول ماهية فارس أحلامها، التي تحددت سريعاً لها، فبات كل شيء واضحاً أمامها وبات الطريق إلى الحلم سالكاً، ولا غبار عليه، خالد فتى تحلم به الصبايا، أسمر، جميل، تعرفه منذ أن فتحت عينيها على الدنيا، لعبت وإياه طفولتها لكن على الرغم من ذلك فإن خيطاً من القلق انسل إلى روحها، فانتبهت إلى أنها تود أن تجيء الإشارة منه هو، وليس من أمه، هي متأكدة من شعورها نحوه، أما شعوره هو نحوها، فماذا عنه؟

هي لا تكف منذ سنوات ترسل له صباحات الخير كل يوم تقريباً فيلقي هو الرد بارداً، وكأنه يلقيه من باب الواجب الذي لا بد منه.

كانت الفتاة تحلم به عاشقاً يذوب تودداً إليها، لكن تعوده عليها منذ الطفولة ربما يمنع عليه ذلك، وربما كان همه الذي يشغله دائماً، والذي يعرفه الجميع؟ على كل حال هي متأكدة من أنه لا يحب فتاة أخرى، كما أنها لا تشك في أنه يكن لها "معزة" خاصة ولكن متى يفكر فيها؟ متى يتودد إليها؟ متى يفتحها بحبه؟ هل يعقل أن تفتحه هي؟ وماذا لو صدها؟ لا... لا غير معقول، مستحيل أن يصدها، لكننا لم نعود أن تبدأ الفتاة بالمبادرة الأولى بل لا بد أن تتدل بالاستجابة، وإلا بدت متهورة أو رخيصة، ماذا تفعل؟ هل تظمنن إلى كلام خالتها؟ صحيح... تذكرت، هل يعقل أن تتحدث معي خالتي بمثل هذا الأمر، دون أن تكون قد عرفت رأيه، أو إستشفت منه ما يوحى برغبته بي كزوجة؟

لم تطرق هذه الهواجس رأس الفتاة للمرة الأولى، لكنها تشعر بحدتها تزداد يوماً بعد يوم، ولا من إشارة للفتى تضع حداً لهذا القلق. حتى وصلت البيت، دفعت الباب ودخلت مثقلة الرأس، مهمومة الخاطر، ألقنت التحية على أمها والضيوف، وما أن جلست قليلاً حتى طلبت منها أمها أن تذهب لإعداد القهوة توجهت إلى المطبخ وبدأت بإعدادها، وبعد قليل كانت أمها تلحق بها، فتنطوع بصنع القهوة عنها، وتطلب منها أن تذهب إلى الداخل وتلبس فستانها الأزرق وتسرح شعرها وتضع قليلاً من الماكياج على وجهها.

فوجئت الفتاة وخمنت شيئاً، لكنها لم تشأ أن تعارض أمها، فخطت إلى غرفة "العيلة" بلا مبالاة واضحة، ارتدت ثوبها الأزرق وسرحت شعرها الكستنائي المتهدل على كتفيها، ثم وضعت قليلاً من أحمر الشفاه، وعادت إلى المطبخ، حملت الصينية وتوجهت إلى غرفة الضيوف، ودارت على النساء بالفناجين.

امرأة غريبة لم تراها من قبل، يتضح من لهجتها أنها من أصل مدني، كانت تتفحصها بعيون مفتوحة على آخرها بدقة، أما الأخريات فكن يتحدثن عن أخلاقها وشطارتها في أمور البيت وعن تربيته التي ما شاء الله، وعن سيرة أهلها -الذين ليس في وجوههم- زي المسك، ثم يتبعن الحديث عن الغريبة وعن زوجها وأولادها، وعن ثرائهم وأصلهم، وعن المحروس صاحب معرض السيارات الذي يمتلك "الشيء الفلاني".

فهمت كل شيء، فنكست رأسها واتخذت قرارها، وكانت ترافق أمها في وداع الضيوف إلى عتية الدار، ثم تعود إلى الغرفة التي تضح في الليل بالأجساد المتناثرة في أجزائها فتغير ثوبها، ثم تجلس في الزاوية تتفحص مجلة فنية، ولم ترد على أمها التي جاءت إليها وأخبرتها بأمر الزيارة التي جاءت لأجلها الغريبة، حين سألتها عن رأيها، سوى أن رفعت نظرها إليها ثم ابتسمت بكل بساطة.

\*\*\*

كانت النسائم تتهدل حين تحفّ سطح الماء الهاديء، وحين تصل أطرافها أنفه، ينتشقها بهدوء وهو مرخي الأعصاب، تسبح خيالاته في الأفق، يراقبها منذ تبدأ رحلتها من تلك التلة المائية التي تتراءى كنقطة سوداء إلى أن تصل إليه، ويرى خليط الألوان المائل إلى الحمرة ما بين سقف السماء الواطئة والسطح البعيد للبحر، قرص الشمس الأيل للغطس، كأنه عين وحش حمراء، تعطشت في صحراء قاحلة، تتعجل التقاء الماء، لتطفيء اللهب الظاميء، ومن تحته الزرقة الداكنة التي تلف أسرار الكون جميعاً، بكل جمالها وغموضها، والضباب الزجاجي بينهما حين تتكسر فيه الأشعة فتخرج منه أطياً كأجنحة الفراش.

تذكر العم صالح بقاربه العتيق حين كان يرافقه وهو صغير فيجلس قبالة يراقبه وهو يثابر على التجديف البطيء الذي يدفع القارب عكس موج البحر، فيعلو ثم يهبط، يندكر أرجوحة الصبا، ومتعة الطفولة التي لم يُقدر لها سوى أن ترافق العجائز والنساء!

حين يكون مع العم صالح، أو مع جده، أو حين يكون وسط الرجال في المضافة يشعر أنه يجلس مع الماضي وجهاً لوجه، وحين يصغي لحكايات جده، يشعره هذا أنه معه، مع المستقبل وجهاً لوجه أيضاً، وحين يلقي العم العجوز بالشبك، يظل ينتظر، دون أن يتبرم حتى يطول الانتظار، إلى أن يعلق السمك، فيشدها ويلقي بها في قعر المركب الذي يغطس قليلاً في رحلة العودة، وكان الصبي بالقدر الذي يفرح فيه لرؤية الصيد الذي يقيم أود الفقراء في حيهم، ترتعد مفاصله لارتعاشة السمك، لحظة خروجه من الماء، يطالع الحياة، ثم تنتابه كآبة عميقة، حين تهمد في الأجساد الصغيرة الملساء التي ما تلبث أن تستكين وتتحول إلى أكوام من الطعام الزنخ!

لكم يشبه قارب الحاج صالح القديم ذو الخشب المترنخ بماء البحر، المرهق بعوامل الشيخوخة، ذلك القارب المطاطي الفتى، الذي يركض في عرض البحر كمهر في ريعان الصبا، يصارع الموج بعنفوان وبقبض على عاتيات الريح باقتدار، لكن القارب الخشبي لا يقوى على الإبحار بعيداً، يظل قرب الشاطئ يلاحق السمك الصغير، الذي لا يجيد الغوص في قاع البحر، يجيء إلى دفء الشاطئ وإضاءته، فيقع في الشرك، أما السهم المطاطي فشيء آخر، شيء مختلف تماماً، لم يصنع إلا لينطلق إلى العمق، لا ليذهب وإنما ليعود إليه بمن يحب.

\*\*\*

كان شاباً عصيباً دائم القلق، لم يواصل تعليمه، وكان أبي من فرط حبه لابن أخيه وللعلم الذي حرم منه يلح عليه بإكمال تعليمه، وكنت أنا نظراً لعودي القوي ولأنني البكر الأنثى، ما أن تحصلت على الابتدائية، حتى كانوا يلبسونني الثوب ويخرجونني من المدرسة، وصار باب بيتنا محط دقات الخطابين! الذين كان يجيبهم أبي بأنني لابن عمي، مسمية له منذ ولدت! وكان هو يتمسك بي، وأنا أنتظر على رغم أن الأنوثة تقترب مني وتضح في عروقي إلى أن أكمل تعليمه وبدأ ينتظر الوظيفة وجمع "القرشين" من أجل فتح بيت الزوجية.

بعد أشهر قليلة كان الزفاف، كنت سعيدة بابن عمي وكنت أشغل الوقت بعد أن أفرغ من عمل البيت في قراءة المجلات التي يحضرها إلى أن يعود، كنا نقضي معظم ليالينا مع أصدقائه الذين كانوا يتناقشون بأمور عديدة فيما كان لنا نحن الزوجات عالم خاص بنا، يدور في الغالب حول الجارات والمعارف والقراية والنسب، الذي لا بد أن تجد طرفه بين الناس، مهما اعتقدت أنهم من عوائل متباعدة، فالنساء شبكة كما يقولون!

أشهر أخرى وكنت أحيل بك، طار من الفرح حين أخبرته أول مرة، وقال نسمية خالداً، وكان يعد الأيام التي تبيقت على يوم مولدك، يراقب نموك يوماً بعد يوم مع انتفاخة البطن الذي بدأ يعلو، وقبل أقل من شهر على اليوم المرتقب كانت الحرب، وطار معها لست أدري كيف، كأنه حلم! ولم يكن أمامنا إلا أن نذهب إليه أو يعود إلينا.

يبدو الأمر بسيطاً على الورق، أن يعود هو فهذا أمر مستحيل ما دام الاحتلال هنا، أن نذهب إليه، لقد فكرت بذلك، لكنني فكرت أيضاً في بيتنا، في أهلنا، لمن نتركهم هنا، كما أنني ما زلت أتساءل إلى أين نذهب إليه أنرافه كبقية ملابس من منفي لآخر؟ أردت أن أراك تكبر هنا وكنت أقول لنفسي المهم أنت، ما أن تعتمد على نفسك، حتى يمكنني أن أتركك، وأن أذهب إليه إلى هناك؟

- إذا أنت تريدين رأيي، لا مانع عندي إن كنت تريدين.

- لا يا بني، كنت أعتقد ذلك في الماضي، أما الآن؟

أكون علينا دائماً أن نختار بين الأحبة والأحبة، هم هنا... وهم هناك.

منذ ولدت وأنا أجد نفسي حائراً، أن أختار بين أن أكون هنا، بين أهلي، في وطني... وطني صحيح أنه محتل وأنه يشبه الجحيم، لكنه وطن وليس منفي، وبين أن أكون مع أبي... ولماذا؟ ألا من وسيلة للجمع بينهما؟

لماذا تضيق الدنيا هكذا حول عنقي؟

شعر بالاختناق، أخرج من جيب قميصه علبة السجائر وأشعل واحدة.

- وتدخل منذ متى يابني؟

- لا أستطيع يا أمي، إنها المتعة الوحيدة لي، أرجوك.

ثم خرج. جاب أزرقة المخيم إلى أن انتهى إلى الشاطيء. جلس على صخرة نائية وهو يشعر بأنه يلهث، وكأن سياطاً حارقة تلهب كل خلايا جسده، تذكر الرمضاء تحت قدميه، حين سار حافياً خلف جده قبل أعوام، يوم "ضمن" لهم كراماً من العنب كانوا يقطفون عناقيده ويحملونها في الصناديق الخشبية وينزلون بها إلى سوق "الجمعة"، يبيعونها، ويحصلون في نهاية الموسم على قليل من الربح، يومها شعر بالعطش الشديد الذي لم يجفف حلقه فقط، بل أعصابه أيضاً، وما يزال يشعر بالعطش حتى اللحظة، والبحر ممتد أمامه، بمياهه الضخمة، التي لو شربها جميعها لما شعر بالارتواء. القلق يجتاح كيانه ولا يعرف له سبباً، نهض من جلسته وأخذ يروح ويجيء محاذياً لحافة الماء، يبدد الطاقة العنيفة التي اجتاحتها مع القلق، إلى أن بدأ يشعر بأن الضغط قد تبدد من أوصاله، فعاد إلى الصخرة إياها وتمدد هذه المرة، ودون أن يخطط، استرخت أعصابه فمر سريعاً بذاكرته كابوس يراه كثيراً، منذ بدأ يعي أحلامه وكوابيسه وأمنيته التي لا تتوقف عن التراقص في مخيلته. كان الطقس حاراً وكانت نباتات الزرع قد أخذت بالتبسي، وكان يركض وراء شيء ما، يركض ويركض إلى أن يجف حلقه، فيبحث عن الماء الذي يترأى له سراباً، يركض ويركض... إلى أن يقع فجأة في البئر... ماء كثير، لكنه لا يرتوي، يمد يده لانتشال الرجل من قاع البئر، يحاول دون جدوى.

تنتفض الموجه فترتطم بالصخرة وتبلل قدميه، تلسعه برودة الماء، فيصحو يبلة العرق، يبلى ريقه بالماء، فتضيق نفسه لطعمه المر، يحمل جثته ويهيم!

اللجنة على كل شيء، على ذلك القابع في أعلى التلة، على من هناك ومن هنا، اللعنة على القلق، على اليوم الذي ولدت فيه، على أمي التي أنجبتني، على جدي وحكاياته، على سميرة وحبها، على الأصدقاء والجيران والناس جميعاً، اللعنة على كل هذا العالم!

كور قبضته ولوح بها في الفضاء وأطلق ساقيه للريح، رغب في أن يصرخ وأن يظل يصرخ... إلى أن يموت، رغب في أن يضحك، فأطلق للضحك العنان، فترددت اصداؤه الهستيرية في داخله دونما صوت مسموع، ثم فجأة شعر بالحصار يضيق على نفسه الخناق، فرغب بالبكاء، لا حاجز بين البكاء والضحك، هستيريا جامحة تنتاب كيانه... إلى أن وجد نفسه في الفراش، تخيل الموت فأقبل باب الغرفة وأغلق النافذة، وكان كلما رأى شقاً مهما كان تافهاً قفز وغطاه بأية قطعة من ملابسه أو من أغطيته الموجودة بالغرفة، ثم تمدد دون أية حركة.

بعد أن مددوه أمامهم وقاموا بتغسيله، ثم تكفينه، كانت أمه تصرخ وتشد شعرها، بعد أن انتابتها حالة من الذهول، وكان جده لا يكف عن ضرب صدره بكلتا يديه، وكان الجميع يبكون ويصرخون، ثم صلوا عليه وبدأوا بتشييعه إلى المقبرة.

انطلقت الزغاريد والأناشيد، وتحول التشيع إلى مظاهرة، فما لبثت قوات الأمن أن تدافعت إلى محيط المقبرة، وضربت طوقها الذي فرض حالة من الجلال والرعب والتحدي.

وضعه في القبر الذي تم حفره في الصباح تحت شجرة الجميز، التي أرخت غصونها واحتضنته برطوبتها الحانية، وما أن تفرق المشيعون حتى بدأ يشعر بالوحدة فأخذ يجوب أنحاء القبر، ويدق بعنف على جدرانه.

استجابت الشجرة لدقاته فبدأت هي الأخرى بالتحرك والاستغاثة، في الصباح انتبه المارون بالمكان إلى حركتها التي كانت أشبه برقصة فتاة رشيفة القوام النقا حولها، ثم تناقل الناس أخبارها، فأصبحت محجاً لهم، يحيطون بالقبر الذي في حضنها، يتعجبون لحركتها الدائبة، يميناً ويساراً لا يمل الاستغاثة.

لن ينسى الصبي مهما طال به العمر ذاك اليوم، حين صحبته أمه ليرى معجزة الله، وما ملّ ولا ضيّع لحظة واحدة، وهو يفتح عينيه على آخرهما يشاهد حركة القبر المستمرة بايقاع صامت أكيد، فهتف بداخله:

ما أعظم الشهداء!

كانت يد أمه تقبض على يده الصغيرة بقوة، وهما عائدان إلى البيت وكانت زحمة الناس في المقبرة، ثم في الشارع الممتد منها إلى البيت، تثير في نفسه شيئاً ما يشبه الفتور، أو الرغبة في مباحكة هذا أو إغاظه ذاك، وكان يتلصص بعينيه الصغيرتين إلى الجنود الذين يملأون المكان، بل العالم من حوله، ما أن يخرج من البيت حتى يراهم بقبعاتهم الحمراء والخضراء يقبضون على أسلحتهم المشرعة والجاهزة، ويلوحون بهراواتهم، ينصت إلى لغتهم التي لا يفقه منها شيئاً، فيشعر بالخوف والترقب، وأيضاً بأمر ما لا يكاد يتبين كنهه، لكنه يكبر معه كلما تقدم به العمر.

ثم ما لبث أن شعر تجاههم بالخوف منذ أن اعترضوا طريقه وكان عائداً من المدرسة مع صديقيه الصغيرين، سمير وإبراهيم، الفتى الذي عاد مقتولاً بعد أعوام، يومها أوقفوهم وسألوهم عن وجهتهم، ثم قاموا بفتح حقائبهم، وفتحوا بقسوة كرايسهم وبعد أن تأكدوا من براءتهم قاموا بصفعهم والتلويح لهم بهراواتهم، فركض الصبية وظلوا يركضون إلى أن وصلوا بيته. وبقي بعدها أياماً ثلاثة لا يغادر البيت خشية أن يجد الجندي بهراواته خارج الدار، وصار من يومها لا يذهب إلى المدرسة إلا بصحبة جده الذي يمدّه بشيء من الشجاعة، وحين يفكر بالأمر، كان يرتعش لأنه يعلم تماماً عجز جده عن ردهم فيما لو اعترضوا طريقه مرة أخرى.

ما توقف المطر عن الدق على سطح بيتهم الزنكي، وبقدر ما كان يمنعه من النوم في تلك الليلة، إلا أنه سمح له بالتأمل، فهذا الماء يجيء بعد الجفاف الذي يرافق فصل الصيف، حيث يجف باطن الأرض وتعطش الأشجار، وتتيبس النباتات، فيجيء المطر برطوبته الساحرة، ليروي الأرض وينبت الزرع ويحيي الشجر، ما لبث أن وجد نفسه يقف على عتبة باب حجرته ماداً يده يجمع حبات الماء العذبة، وكأنه يغرف من نهر إندلق من جوف السماء، فيشرب ويبل ريقه، الذي ما شعر به مرتويماً يوماً منذ أن بدأ يفكر في نفسه وفي العالم من حوله، ويرى أن حياته مازالت فصلاً متصلاً من الصيف بحرارته اللافتة واللهيب الحارق، الذي جفف الحياة في عروقه، حتى بدأ يشك إن كان دمه رطباً ينساب في شرايينه، وكاد أن يفسر سبب الشعور بالاختناق الدائم الذي يلازمه.

كاد الرذاذ يتطاير في الفضاء، وعلى الأرض، تتجمع بقع الماء في المطبات وفي باحة الدار ويملأ المطر الطاسات وأواني المطبخ التي وضعتها أمه تحت مزاريب "الزنك".

كانت البرودة تنخر عظامه فيتنذكر فرحته الصغيرة، حين كانت تعود أمه بنصيبها من "بقجة" الهيئة، فيقف أمام الكنز يخطف ما بداخله. هذه كنزة ذات ألوان جميلة يرتديها بسرعة البرق، فما تلبث أن تفر منه فرحته الأولى حين يكتشف أن أكمامها طويلة، أو أنها كبيرة عليه كمن يرتدي زي أبيه، وما زال يذكر بشيء من الخجل ملابسه الداخلية التي كانت تخطبها له أمه على ألتها اليدوية، وكان قماشها من أكياس الطحين التي رسمت عليها القبضة الأمريكية، وما زالت الكلمات المكتوبة عليها بالخط الأحمر، هدية من شعب الولايات المتحدة الأمريكية، أو ليس للبيع أو المبادلة محفورة في ذاكرته.

كل ما كان يشكل طفولته كان مستجدي من شعب الولايات المتحدة، الطحين، الأرز، الملابس، بيت التنك، الكرايس والأقلام والمساطر، طفولة بانسة، مستجدها، كان يشعر وكأنه كبير فوجد طفلاً



كان يأكل ويلبس من بقايا طعام و "باله" الولايات المتحدة، هذه البلاد التي تقبع خلف المحيطات، وتلقي إلينا بالنفاية.

ود لو يتجرد من ثيابه المشبوهة، بل من جلده ولحمه الذي تربي على طحين الاستجداء، وأن يقف تحت الرذاذ يترنح بروح الله، فيتطهر ويعيد طفولته فيكبر مرة أخرى، كان يرتعش من البرد والغيظ والألم، ويتطلع إلى السماء وينذكر التلة، فيذهب إليها وينطلق إلى الأعلى ليقول شيئاً، ثم يعود فيلقي بجسده المتعب ويرتاح.

كان الجد قد انتهى لتوه من صلاة العشاء وما يتبعها من دعاءات مكرورة، لايملها، ثم بدأ في لف عظامه الشائخة بعبائته، فيما كانت كئته تقوم بإحضار الأرجيلة والنار التي ينفخ فيها إلى أن تتجمر وتدمع عيناه من الدخان ثم يبدأ بعد ذلك بسحب أنفاسها التي يتكركر معها الماء كعاهرة تنفجر حين تقوم بمص شفيتها!

هذا الجد يا له من رجل مثابر وعنيد، حتى في فصل الشتاء البارد لا يتوقف عن خطرته الصباحية، يمارسها بشغف ومتعة، يذهب إلى قطعة الأرض البائسة يزرع الشتلات الصغيرة، وما أن تخرج إلى سطح الأرض، حتى يهفو عليها، فيمسد أوراقها، تماماً كما يفعل دائماً معه، حين يجلس إلى جواره، قد يشتد كثيراً برد هذه الليلة، لكن كل قوة الأرض لا تستطيع أن تثني الشيخ في الصباح عن التوجه إلى عملة.

جدي.... أقول يعطيك العافية، لقد آن الأوان أن ترتاح، بإمكانني أن أقوم بالعمل عنك، يمكنني أن أذهب مع الشباب وأعمل، يكفيك بعد هذا الذي قضيته في الحرث والزرع والحصاد و....

- وعلامك يا ولدي؟

- وماذا تفيد الشهادات يا أبي.

ويكون الجواب القاطع دائماً:

- لا.... لا لن أرتكب الخطأ مرتين، لم أقم بتعليم أبيك، وأنظر إلى النتيجة لن أفعل الشيء نفسه معك، ولو على جثتي، ثم تدمع عيناه فينكس الفتى رأسه ويكف عن مجادلة جده.

بالرغم من الحب العميق الذي يجمعهما، إلا أن خيطاً من الخلاف الكامن في صدريهما، بدأ الفتى مع الأيام في إداركه، الجد دائم الخطرة إلى الشرق، حيث قطعة الأرض الصغيرة البائسة المتاخمة للحدود.... التي ما عادت كذلك بعد مولده، أما هو فدائم التطلع إلى الغرب، حيث المدى المشرع على صفحة الماء الأزرق.

جدي لماذا لم تكن بحاراً مثل عمي الشيخ صالح؟ بيتسم الشيخ ويجيب:

- أنسيت يابني؟ أنا مهاجر جئت من هناك، حيث ولدتني أمي على الجرن في مساء يوم قانظ، أما عمك فقد ولد هنا على حافة البحر، والبحر مفتوح على الغرب.... مفتوح على المدى البعيد، الذي يبلغ الأبناء، فلا نعود نراهم مع الأيام، إياك يا بني أن تدير ظهرك لي، وتذهب مثله إلى حافة المجهول.

هذا البحر الذي يمتد ويتسع أمام ناظريه ويبلغ المدى، ينبسط تحت حافة السماء، فيشرع الأبواب ويزيل الحواجز من أمام خيالاته وأحلامه، لماذا يخشاه الجد هكذا؟! لأنه فلاح ما عرفت ساعده

الخشنتان، الرخوتان , سلاسة مائه وحنو صفحته؟ أم لأنه ينفث على الغرب حيث جاءت في الماضي  
البواخر والأساطيل بالغباء. لكن حقيقة ما البحر؟

هذا الكائن العجيب الهائل القوة والجبروت، ولماذا هو شيء آخر للعم صالح؟

كانت خيوط المطر حين تهطل على سطح البحر، توحى للفتى وكأنها سلم امتد من قمة السماء،  
كأشعة مركب سماوي امتطته الملائكة، لتستمتع بنزهة بحرية بعد طول غربتها هناك، فوق، كان  
يتطلع إلى فوق ويراقب قوس قزح الذي يبدو له كقارب مطاطي ملون، اختاره الرب أو كأجنحة  
الفراش، حتى ظن أنه هو الآخر ينزل في هذه اللحظات ليقوم بنزهته، كم تمنى من أعماقه أن يتجسد  
أمامه، أن يراه... أن يبكي له، أن يصرخ في وجهه، يا رب كم عذبتنا!

كانت الأسماك لا تكف عن الغوص والحركة، تروح وتجيء جذلي بالحياة، لو كان يستطيع مثلها  
الغوص، لجاب أنحاء الأرض وبحث عنه، لو تحدث إليها وأوصاها بما يريد، لو ضرب بعصاه فأفلق  
البحر، لو ظهرت له عروس البحر، لو تحققت رغبة الطفولة ووجد طاقية الإخفاء، لذهب فوراً إلى كل  
الأشجار، واحداً واحداً، ولبصق في وجه كل الجلادين ولذهب إلى النقب، وعطل كل الأسلحة، ولحطم  
كل الهراوات، وكان ذهب إلى البنوك والقي بخرانها في الشوارع، لو جاءه بساط الريح.. لحلق به،  
وحطم أجنحة الفانتوم، لو لو...

كان صغيراً حين سمع بكل هذه الأشياء وها هو يكبر ومازال ينتظر. في الأيام الماطرة كان  
يهزول ورفاقه مع جداول الماء التي تشق طريقها في الأزقة، يغوصون حفاة فيها حتى سيقانهم، يهللون  
للفرح الطفولي، وما يشعرون بالبرد أبداً، أياكون الشعور بالبرد إذاً مرده قلق النفس؟ أم الحيرة أم التأمل  
أم الرغبة أم الوهم؟

في ليالي الشتاء تكمن العائلات في بيوتها، فتمتد الحكايا، ويسهر الجد مع ناره التي يحتضنها  
"الكانون" الطيني، فتتعدد أنفاس نارجيلته ومواويل العتابا أيضاً، ينصت للنغم، لم يكن يشده سوى  
الايقاع الذي يختلط بنقرات حبات المطر على سطح الصفيح.

أما أمه التي ترتدي أكثر من ثوب، ولا تخلع الثوب المطرز حتى عندما تنام، فتضعه في  
حضانها، توزع دفء حناياها على جسده الصغير الغض، وهذا البيت الصغير، الهش، الهاديء ما  
بداخله، المثير ما حوله، يحتضنه أيضاً، في هذا الركن ولد، وهنا حبا، في هذه النقطة بالذات تقاطعت  
خطوط السماء حيث الروح مع أعماق الأرض، حيث سيتلاشى مع خطوط البحر، حيث المدى،  
والحدود تجاه الشرق. يدور ويدور ومن هنا يبدأ، وإلى هنا ينتهي!

حتى يصير صندوق الصفيح أشبه بصندوق، كان مهده يوم ولد، ويكون نعشه حين يموت.

\*\*\*

كانت تتكور على نفسها في الفراش كأرنب متعب، تنصت إلى الدقات التي يحدثها انهمار  
المطر، على السطح الذي يبدو لها كحاجز، يقطع الطريق على انطلاقة خيالاتها، لتلتقي النجوم السابحة  
في جوف الظلام، خيالاتها التي تتوهج بالرغبة والأمنيات، تضع يدها النحيلة الناعمة على صدرها،

فتلاحظ انسجام الدقات على سطح التنك، مع تلك تحت سطح صدرها الرقيق، فيتراءى لها المخيم قلباً نابضاً بالخوف والترقب.

عينها فقط تتلصصان من تحت الغطاء، فتذهبان مع خيط النور الذي يفلت من لمبة الكاز ويخرج من شق الباب، فيضيء لها خيط المطر بانهمارته المتصلة، تراه كخيط الدموع الذي ينسكب من عين أم ثكلى، في ليال هادئة موحشة، أو كأهات عاشقة أضناها طول الانتظار.

الليل هاديء والسكون جميل، والمطر الذي يحتضن في مآله الأخير، الأرض التي تبيست طوال فصل الصيف، يتسلل في شرايينها، فيصير دماء تمنحها الحياة وتنبث فيها العشب والزرع.

كانت تشعر باليباس يعم أوصال جسدها الذي مازال ينتظر المطر، تتلاحق أنفاسها، الجفاف يشفق حلقها، تشعر بالحرارة المفاجئة تدب في أوصالها، والعطش يدفعها للنهوض، فتتناول أبريق الماء، وتدلّق محتواه في جوفها، لا ترتوي، تتأمل المطر... فترى نتف الحياة تنهمر بين القطرة والأخرى، ترغب في فتح فمها على آخره تحت خيط الماء، تتلقاه كالأرض اليباس، فيرطب حلقها ويمنحها الحياة.

\*\*\*

المطر يثلج صدر العجوز، الذي يتسلى في المساء بإشعال النار في العيدان اليابسة، التي يقوم بتحطيتها وجمعها، ثم بإلقائها في جوف الموقد يظل ينفخ بأنفاسه المتقطعة، يكافح الدخان الذي يملأ البيت، ولا يتوقف عن النفخ إلا بعد أن يتحول الخشب إلى جمرات كثمار البرقوق الأحمر، تبث في أوصاله وعائلته الصغيرة الدفء، فيعمر الأرجيلة ويكركر، ويسرح مع الذكرى.

ما إن يصبح فصل الشتاء على الأبواب، حتى يبدأ أهل القرية بعجن الطين المخلوط بالتبن، ويقومون بترميم بيوتهم التي تبدو كالصبايا في كامل زينتها، خصوصاً بيوت الأغنياء التي يقومون بتزنيدها بخطوط "الشديد" وعقد المصاطب في فنائها، حيث تحلو سهرات الصيف تحت عرائش الكرمة، حين تتدلى عناقيدها المرمرية. ومن البعيد تترأى له نباتات الزرع العشوائية التي يخرجها المطر من بين طبقات الطين، كذؤابة تزيد البيت جمالاً أو كأنها غرة عروس، ترسلها في دلال!

ثم يقومون بفتح الأفتية حول البيوت، ليأخذ الماء المتجمع مجراه إلى الحقول خارج القرية، ويسارع كل واحد منهم إلى محراثه، فيربطه إلى ظهر دابته، يشق به صدر الأرض، حتى تنهياً لاستقبال ماء الحياة، ثم يبدأ في نثر "الحب" في ليالي الشتاء، ويقوم بحرثه هو الآخر، وينثر فيه حبات الطلع، التي تكمن في الجوف تختمر فيه إلى أن يجيء الربيع بالدفء فتنتفخ البطن، ويطلع الزرع ثم ينمو، ويجيء الصيف فيشمر الفلاحون عن سواعدهم ويبدأون بجز عيدان الزرع، وبعض البطون تكون قد نضجت أيضاً، وما أكثر ما أنجبت نساء "الحصادين" بجوار غمار القمح!

\*\*\*

في ليله مطرة تشبه هذه الليلة، ولد أبوه الذي ربما يكون قابلاً الآن في خيمة تصرخ بها الريح ولا تقوى على رد برودتها عن جلده الخشن، المتسخ، ربما يكون قد أوقد حطباً أو أشعل "بابوراً" يتدافاً عليه، ولربما يكون ملتحفاً بمعطفه العسكري، يفرك يديه ببعضهما ليحفظ حركة الدماء في شرايين يديه. وربما يكون في غرب الدنيا أو شرقها، الله وحده يعلم، ولكن الأكيد أن عظامه تصطك من برودة المنفى أكثر مما تصطق أغصان أشجار الزيتون في رؤوس الجبال، حين تزمجر الريح قبل هطول المطر.

بل ربما يكون الآن في خطرة ليليه، يتقل قدميه اللتين تحملان أطنان الطين، والسماء قد انفتحت جوفها فوق رأسه، حتى غدا كعصفور ألقته يد شريرة في بركة ماء.

ما زال يتذكر ذلك الطائر الصغير الذي أسقطته عاصفة المطر ذات شتاء في باحة الدار، وكأنه سقط من السماء، وكان في الرمق الأخير، حين تناوله ودسه في "عبه" ناحية القلب، الذي أخذ يخفق بقوه، حتى عاد إليه خط التنفس الذي كاد أن ينقطع، ثم هرول به إلى كانون جده ووضعه برفق قريباً من النار التي نثرت دبيب الحياة شيئاً فشيئاً في أوصاله التي تجمدت للحظة، وحين اطمأن إلى أنه عاد قبضة من حياة، صار هو كتلة من فرح، فنام وقد ضمه إلى حضنه وحلم ليلتها بالجنة. وحين أشرقت الشمس في الصباح، ودّعه الطائر الصغير بأن لوح له بجناحيه الصغيرين ومضى، وصار يعود كل مساء مع غروب الشمس، فيقف على شبك نافذته هنيهة يزفرك له بكلمات ولا أجمل، ثم يمضي ويعود كل يوم وقد كبر بحجم حبة العدس، إلى أن صار حمامة بيضاء تقف على الشباك، تبتسم خجلي، ثم ترف بجناحيها وتطير... وذات يوم عادت إليه بعد أن انقطعت عنه أسابيع، وكانت تهدل بدلع الأنثى، عابثها في اللحظة الأولى، ثم فهم كل شيء، فقدر الأمر وتقبله وتمنى لها السعادة، أطرقت بخجل ثم لوحت بجناحيها وودعته، تأملها فراها أجمل أنثى وسماها اليمامة، وصار يبحث عنها منذ ذلك اليوم في كل الأزقة وبين كل الوجوه الناعمة التي تصادفه... وما زال يبحث، أما هي فكانت تتكلم في فراشها تكاد أن تفلت الدمعة الحارة من مقلتيها... فهو بالقدر الذي يكون فيه قريباً منها، تجده أبعد إنسان عنها، فلا من إشارة تدل على أن القلب قد انفتح كما تشتهي!

ما زال طفلاً يسير كل يوم على قدميه الصغيرتين إلى المدرسة النائية التي طالما حلم بها في طفولته المبكرة، لكنه مع السنين وعاماً بعد عام بدأ يشعر بالملل، ويكره ساعة الصباح التي تضعه وجهاً لوجه مع دقة الجرس الصباحية، حتى صار ينتظر بلهفة أيام الجمع، وأيام العطل، ويحتمل ثقل العام الدراسي وانتظاراً وترقباً للعطلة الصيفية، ولا يخفف عنه سوى اللحظات التي يقضيها كل مساء على حافة الشاطيء، حتى عشق البحر، وصار يتمنى لو أن الله قد خلقه كائناتاً بحرياً لتحرك بحريه في جوفه، منتزهاً بين اللآلئ مصادقاً الأسماك ذات الألوان المتعددة والأشكال المختلفة، ولهمس في أذنها محذراً إياها من شبك الصيادين، لتبتعد عن شواطئ القتل، وتغوص في الأعمال الدافئة.

البحر هذا الهائج العملاق، يهدر في الليالي الباردة، وكأنه حين يتلقى خيوط المطر، إنما يتلقى ما تجتمع من دموع التكالى والمعذبين في أنحاء الأرض طوال العام، فيثور لها ويحاول أن يلطم الشياطين والرياح التي تزمجر فوق صدره وتقتلع كل ما يمت إلى الحياة بصله، الأشجار والناس، تحاول أن تذهب بعيداً بالغيوم حتى لا تلقي بمائها فوق أرضنا.

البحر هذا الطيب الكبير، الذي ما أن تدخل إليه في العمق حتى تكتشف هدوءه وصبره الطويل، دفعه وحنوه الدائم، واحتواءه للحياة واللآلئ، هذا التأثير الذي لا يمل ولا يبأس من محاولاته الدائمة التخلص من سجنه الأبدي في هذه الحفرة الهائلة!

هذا الذي له زرقة السماء ورحابة الدنيا وطعم الدمع، الذي يرطب الأجساد الضامنة في حر الصيف، يذفيء النفوس المرتعشة من البرد في الشتاء، ويصل الأرض بالأرض، ويرتضي أن يمتطي سهوته الصيادون والمهربون والقتله، ويضم بين ضلوعه الأجساد العارية وحراشف الحيتان، الذي يزيد بالموج ويمتليء جسده بالدوامات القتاله، كدرينة أثختها صليات الرصاص!

البحر كل هذا، وفوق هذا صديقه الأبدى الذي يبوح له كل مساء بمكنونات روحه، وما زال ينتظر أن تأتيه الزجاجة التي ألقاها ذات يوم، بالرد الذي يحلم به على ذلك السؤال الذي خطه بقلق عميق منذ أعوام على ورقة انتزعها من دفتر الأيام وكان كنهه- بالله عليك أن تجيبني ببساطه، متى تعود؟

مطأطناً يعود كل مساء، تحوم الانكسارات فوق رأسه غمامة كاذبة، كبلاطة القبر التي ألقيت فوق صدره يوماً، وما استطاعت أعضاؤه الميتة أن تزيحها، إلى أن جاءت الحمامة البيضاء، التي ما عاد يراها إلا حين يشتد به الكرب ويصرخ الهاتف القابع بداخله مستجداً بها.

منذ ذلك اليوم عرف رعب الموت، بعد اللحظة الخاطفة التي مد بصره فيها من تحت الأرجل التي كانت كسيقان الشجر في غابه، ولمح وجهه المحنط وابتسامته العريضة ورجولته الخارقة وما أحدثته من رعب فيه، هم الذين طرزوا جسده بالرصاص!

الرصاص، تلك الطلقات المرعبة التي صارت تعني الموت، منذ بدأت المواجهة في الأزقة والساحات الضيقة التي ما كان يعرف أبداً حين كان صغيراً، أنها تحيل الأجساد الحية النابضة إلى كتل هادمة بهذا الشكل، الذي صار يراه بعد ذلك. كانت تلك الأصوات تعني له أن عرساً قريباً يحدث، أو أن حدثاً سعيداً قد تم لأحدهم، فيطلقه الناس ابتهاجاً، أما أن يطلق بقصد القتل، فذاك ما صار يثير في نفسه السخط بعد ذلك!

حين كان صغيراً، كان يلعب مع أترابه في الحارة، وكانوا يطلقون على بعضهم الماء بمسدساتهم البلاستيكية، فيرتمي من تصيبه طلقات الماء ويعمل ميتاً، وبعد أن تنتهي المعركة ينهضون جميعاً، وقد لفهم الفرح، أما أن يسقط بعد ذلك رفاق اللعب وقد صاروا شباباً ويرى وجوههم المحنطة كوجه الرجل الذي لمح صدفة من بين السيقان المتراصة، ولا ينهضون، فذاك أمر صار يهز كيانه تماماً.

كان يسمع عن الموت والقتل والشهادة فيتخيل الأشخاص الذين قضوا، فيشعر بالحزن لأجلهم، أما أن يراهم يتجدلون أمامه ومن حواليه، وبعضهم أصحابه وجيرانه ومعارفه وأقرباؤه، فذاك أمر مختلف تماماً، يطلق المشاعر الهائلة جارفة من أعماقه، من كل ذرة من أعصابه، رعباً وحقداً وسخطاً لا حدود له.

كان صغيراً ولم يدرك يوماً أن رؤيته ذلك الوجه الجاف، الذي بدا له كبلاطة باردة، سترافقه كنبته في ذاكرته الصغيرة، فتضغط على أعصابه حين يكبر، وتصيبه الكوابيس التي لا تتوقف عن زيارته، حتى في صحوه، حين يتطلع إلى ذاك الإطار المثبت في الجدار، فينطبق الوجه على الصورة المحنطة ويصير وجهها بارداً كبلاطة جامدة، فيصاب بالغثيان وتدور به الدنيا حتى يكاد أن يغمى عليه!

كان العرق يتصبب من أنحاء جسده، رغم برودة الجو، الحنق والقلق يجتاح كيانه ذاك المساء، وقد اختلطت الأشياء كلها في رأسه وصدره، وتداخلت فصار كيانياً واحداً تكشف في لحظة واحدة، اختلطت الطفولة بالحلم وتداخلت الأمكنة، بيروت واليرموك وغزة، انطبقت اليايسة في الشرق على البحر، وضغطت بلاطة القبر على صدره، فما عاد قادراً على التنفس، وصار يلهث كأنه يواجه الدنيا جميعاً، صار في لحظة ودون إرادته أو رغبته، هو الذي انطوى على نفسه كثيراً ليس له سوى البحر

والحلم الذي يتسع مع أفقه الشاسع يفكر في كل شيء حين يلعلع الرصاص الذي ما عاد لعبة الطفولة، ولا تعبير الابتهاج في الأفراح، يشعر به موجهاً إليه بالذات، يغربل جسده ويطرزه بالبقع الحمراء، فيصير في لحظة لا راد لها كتلة تخلو من الحياة.

في ذلك المساء هرول مسرعاً إلى البيت، وتوجه إلى المرأة، تطلع ملياً في الصورة التي انطبعت على السطح المصقول فرأى وجهاً فتياً في المرأة بشاريين منتصبين وملامح واضحة، حادة ومتحفزة، همّ أن يقول شيئاً طالما رغب أن يهمس به في أذن ذلك المتربع على التله في الشرق، لكنه رغب في تلك اللحظة أن يصرخ به في كل الاتجاهات حيث يوجد ويملاً الدنيا، ما كان يستطيع هذه المرة إلا أن يسمع وأن يرى ما يدور حوله، بعد أن كان يسمع ويصمت، يرى ويصمت، تختزن الذاكرة كل الإهانات وكل المصائب، كان يصمت ويتعذب، يصمت ويتأمل، يصمت وينتظر. إلى أن ملّ من كل شيء.

طاقة هائلة بداخله تضغط عليه، ولا يدري ماذا يفعل؟

أيرتمي بحضن أمه كما كان يفعل وهو صغير، حين كان يضربه الولد يوسف ويأخذ منه النقود، أم يذهب إلى جدّه ويلقي برأسه على كتفة، لتمتد اليد المرتعشة على جبينه فتهديء من روعه، أم يعود للبحر فيلقي بجسده الملتهب في أعماقه الباردة، أم يذهب للحاج... والله زمان يا حاج لم أرك منذ مدة، تلبد في الشتاء متدفعراً بفراشك الدافئ، أرفقاً بالسّمك، أم لأن أوصالك تصطّك في البرد! أم يذهب للشيخ كما فعلت أمه وجدّه يوماً، وما كان قد أكمل عامه الثالث، حين انقطعت أخبار أبيه، فتمتم الرجل المسن ووضع الشاش على رأسه، ليري في بقعه الزيت بلوراً عكس له الصورة إياها المثبتة بالجدار وكان الرجل يلبس الأخضر الكاكي، يلتف بمعطف ثقيل، يقبض على الحديد وينتظر، أه أما زال ينتظر هو الآخر! الكل ينتظر... أنا وأمي وجدي... أبي، حتى الحاج صالح؟

أينتظر هو الآخر أن تعود الحياة إلى ولده الذي غرق يوماً في البحر؟

كل الحكايا التي رافقته وعبأت الذاكرة، تدافعت إلى رأسه دفعه واحدة حتى حكاية القرية، التي بقي يعتقد أنها واحدة منها، وما تأكد من حقيقتها إلا حين ذهب وجدّه لها، وكانت كومة من الأنقاض... هذا هو البئر الذي كنا نشرب منه، هنا كان بيتنا، وهذا كان بيت جدي أبي محمود، هذه أنقاض المضافة، هذا هو الجامع، هذه الزيتونه التي كنت أفيء إليها، هنا الساحة التي كانت تعقد فيها الأفراح، هذه حدود أرضنا، ومن هنا تبدأ أرض أبي سعيد اللامي، تلك هي المقبرة.

ودمعت عيناه وهو يتجه إلى حيث أشار للولد بإصبعه، وسار بقدمين ضعيفتين ثم توقف وطأطأ رأسه وقرأ الفاتحة، هنا ترقد جدتك يا بني، اقرأ على روحها الفاتحة!

- ألم أقل لك يا ولد أننا سوف نرجع يوماً ما؟

- وهل تعتقد أننا نعود هكذا؟

- لو لم يكن من أجل خاطرك!

بعد الاحتلال الثاني ذهب العجوز إلى القرية، فأنغمّ باله، فلم تكن سوى أنقاض، أكواخ من الحجارة المهملة، وطول الطريق إليها كانت ترقبه العيون وفوهات البنادق، يومها حلف يميناً أن لا يعود لزيارتها مرة أخرى، لكنه كرمال خاطر خالد حتى الأيمان تهون!

أيمكن للحكايا أن تتأكد كحقيقة القرية التي كان يراها واحدة منها؟ أم أن عودتها له ولجده ولأبيه ستعيد كل شيء حتى تلك الحكايا؟؟

شعر بالضيق إلى حد الاختناق، مد يده وفك زر قميصه وتحسس عنقه ، مرت يده على الخرزة الزرقاء المتدلّية في صدره والتي رافقت مسيره حياته يحملها على مضض، فلأم قصصها وحكاياها هي الأخرى!

ماذا يمكن لهذه الخرزة أن ترد عنه، أعين الحسد، أم أذرعة الضيق، أم رصاصات الموت؟

حين وصل البيت وهم بالدخول جاءه صوت جدّه، بقدمك اليمنى يا ولدي، وتابع بعد أن بسمّل وقرأ شيئاً من القرآن، هنا كان يجلس أبي، وفي هذا المكان بالذات سجيناه يوم مات، تحدث بصوت منخفض، فأرواح جميع من سكنوا هذا البيت، وماتوا فيه، ترافقتنا الآن، أقرأ الفاتحة على أرواحهم جميعاً.

في هذه الغرفة أسلمت أُمّي العجوز الروح لبارئها، في هذه الغرفة وفي هذه البقعة بالذات تجمعت دماؤه بعد أن أصيب ليلة معارك الدفاع عن القرية.

بسم الله الرحمن الرحيم: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً" صدق الله العظيم، ما زالت الآيات القرآنية تتلى في بيت الحاج صالح منذ تلك الليلة التي نادى ابنه فيها هاتف البحر، فذهب ولم يعد، ليلتها ألقى كل شباب المخيم بأجسامهم الفتية في الماء، حتى خيل إليه أنهم أشبه بسرب من السلمون الذي يجذب عكس التيار، صارعوا الموج الهائج ولم يعثروا له على أثر، حتى تحول البحر في نظر الحاج إلى قبر كبير ومخيف ومن يومها تحول حبه الجارف له إلى بغضاء جارفة، ما أن يقترب منه حتى يبصق في وجهه، ويعاتبه بحرقة حارة، وهو الذي أفنى عمره في رفقته، وصار يولي قبلته منذ تلك اللحظة باتجاه الشرق، حيث الحارات الضيقة والناس المتعبون.

صارت هموم الناس تنعكس على وجهه تجاعيد طغت على ملامح الوجه الذي كان بشوشاً، ما كان البحر هكذا فيما مضى، كان هادئاً ومعطاء لا يرض علينا بالسماك، كنا نلقي بالشباك فتمتلئ باللحم الطري، أما الآن فكأنه محشو بالديناميت التي تنفجر أمواجاً هائجة ودوامات قاتلة في أية لحظة. الخوف أن يتحول البحر إلى غول يبتلعه في جوفه أو أن يبتلع حلمه في أعماقه في يوم من الأيام أُرهب أحلامه، وأشعره بشيء من الرعب الحقيقي، تساءل في أعماقه، لماذا يكون البحر هنا قاتلاً ويكون هناك مسرحاً لعرض الأجساد الفاتنة، ومطية لمراكب التنزه والمتعة؟

أليس البحر هو البحر في كل مكان، فلماذا يكون لزرقتة لون الحداد هنا، ويكون لها لون الفرح هناك؟ لماذا يصرعونه هناك ويصرعنا هنا؟

لماذا يسلم قياده هادئاً ذليلاً هناك؟ ويتمرّج علينا هنا؟

حين ألقى بجسده المرهق على الأريكة وتطلع إلى السماء الصافية في يوم الصحو، رأى زرقة السماء التي تراءت له بالغيوم السابحة في جوفها ككتل الموج التي تجيء وتذهب فقفزت إلى رأسه الخاطرة، البحر من أمامكم والرب من فوقكم والجند من خلفكم، ماذا لو تحول البحر عنه؟

إذاً لأطبقت الدنيا بفكيها على روحه، الطفلة الغضة، تذكر حين كان طفلاً في الابتدائية وطلب معلم الرسم من التلاميذ أن يرسموا شيئاً يحبونه، يومها رسم البحر، بزرقتة الناعمة، يتهادى على

صفحته زورق يأتي من البعيد يحمل رجلاً طالما انتظر عودته، لوحة طالما حلم بها في الليالي التالية، وبعد فتره تحولت إلى كابوس، حين اهتاج البحر فجأة وقذف بالمركب الصغير إلى قاعه السحيق. الحلم ما زال يراوده في صحوه والكابوس أيضاً يداهمه في ليلائه فجأة، فتتوتر أعصابه بينهما ولا تهدأ إلا حين يذهب إلى البحر، يقضي الوقت ينتظر، ويتطلع دون كلل إلى الأفق البعيد ليتأكد إن كان ما يراه هو الحلم أم الكابوس.

حين كان يذهب في طفولته إلى البحر، كان يبتعد قليلاً عن أمه وعن الصغار أيضاً، الذين كانوا يدفنون أجسادهم في الرمال، ثم يبنون بيوتاً، قصوراً أو حتى قلاعاً في الرمال.

- خلف القلعه... قلعة نحنا.

ساحات الدنيا مطارحنا

يا بحرية هिला هिला

يدور اللحن في رأسه ولا يدري إن كان يسمعه فعلاً يصدر في مكان ما، أو كان يتردد في خياله فقط.

أما هو فكان يقترب من الماء ويلقي بمركبه الورقي على صفحته، ويراقب بفرح اندفاعته ويرى نفسه بداخله يجوب البلاد المسحورة، التي ترضخ لارادته وتحقق له ما يشتهي، يتهادى المركب ويتوغل في عمق الماء، حتى إذا خر في أعماقه، تلقفته عروس الماء، واحتضنته وغاصت به في الأعماق، حيث اللآليء والشعب المرجانية والعرش الذي يتوجه أميراً وزوجاً لعروس البحر.

فجأة تمتد له يد أمه وتسحبه من الجنة

- هيا يا حبيبي تعال لتتناول طعامك.

يلعظ في قبضتها، لكن مركبه تكون قد ابتعدت، يحملها الموج بعيداً في عمق المدى المائي المتألبيء بحبات الماء اللامعة مع انعكاسات شمس أيار.

الماء أي شر فيك؟ في كل لحظة يشعر بحلقه يشتعل، يهرع إلى إبريق الفخار فيكرع من مائه الرطب، فيبرد جوفه اللاهب، حين تتشقق الأرض، تنهمر خيوط الماء، فترطب جوفها وتعيد إليها الحياة، وتنتب فيها الزرع، حتى المرأة لا تلد إلا بعد أن تستقبل ماء الرجل!

"وجعلنا من الماء كل شيء حي" هذا ما يقوله الرجال في المضافة، ولكن حين تتجمع المياه وتزداد... تضطرب وتجرف السدود، وحين يهيج البحر، يقلب المراكب ويبتلع الصيادين، فيصير الماء هو الموت، غريب هذا السر، أن تنقلب الحياة إذا ما زادت عن حدها إلى الموت!

في البستان يتصدى لنصف الماء المتدفق من القناة، في حين يتجه النصف الآخر على مقربة منه باتجاه جده، يرفع المجرفة بيديه المعروقتين إلى ما فوق رأسه ويضرب سدود الطين عن المثالب الفرعية، حيث شتلات البندورة والخيار قد صارت بطول أصابعه وبرقتها، يرقب الماء الذي يتدفق إلى جذورها الشعرية الدقيقة، يضح فيها النماء.

كان في طفولته يجلس بالساعات أمام التينة العجوز، المنتصبه في باحة الدار يرقب نمو أوراقها، ويعجب لهذا النماء البطيء، وما زال يتمنى لو يستطيع ولو بمجهر أن يلحظه بعينه، وكان يخيل إليه



أنها تنمو في اللحظة التي يغفو فيها، وإلا فما الذي يفسر، أنه في كل صباح ينظر إليها فيراها وقد تغيرت عما كانته بالأمس!

أي سر عجيب هذا الذي يتحكم في الأشياء جميعاً، فيحصرها بين الحياة والموت، فلا تغدو الحياة بجمالها الرهيب، أكثر من رحلة سعيدة تمر كلمح البصر، وكأنك في قطار، يسير واثقاً باتجاه حتفه، وكأن الحياة ليست سوى مشوار حب يقترب يوماً بعد يوم من نهايته الفاجعة، لا تبدو حياتك مهما تشبثت بها أكثر من عدد من الأيام ينقص واحداً تلو الآخر مع كل مغيب شمس، عدد من الخطوات تسيرها واحدة أثر أخرى باتجاه القبر.

تأمل كثيراً وحاول أن يوقف سطو الأيام على جسده، حتى أنه كان يمتنع أياماً عن تناول الطعام، وكان كلما مر عام عليه، رأى أن أجمل سني عمره هي التي انقضت!

تساءل عن هذه الآلية العجيبة للحياة، أكان من الضروري أن يخلقنا الله صغاراً ثم نكبر... ونشيخ... ثم نموت، وأن نصحو نأكل ثم ننام ثم نصحو وهكذا، أكان لا بد من فترة الطفولة، ومن الكهولة أيضاً، أكان لا بد من الأكل والنوم، وحتى الذهاب للمرحاض!!

في دورته القصيرة كان الحقل يجف مع انتهاء موسم الصيف، ويتحول إلى أرض حمراء قاحلة، تثير الرعب والوحشة في نفسه، فكر كثيراً في الأمر، وفي مساء ذات يوم ذهب إلى السوق وابتاع شتلة زيتون وقبضة نعناع زرعاها في أصيص الفخار الرابض على نافذة والدته، حتى إذا فوجئت بها في الصباح قبلته قبلة رضا على جبينه، وفي صباح اليوم التالي، حمل شتلة الزيتون ذات القاعدة الترابية الرطبة وحفر لها قرب العريش، وزرعاها. ثم ابتسم لجده، وقال: زرعا فاكلنا ونزرع فياكلون، فرد عليه العجوز "أطال الله في عمرك يا ولدي فتأكل وأولادك وأحفادك وأحفاد أحفادك من ثمارها.

\*\*\*

وعكة صحية ألمت بالجد، منعه من زيارة البحر أياماً وابقته إلى جواره، يقوم على خدمته وشد أزره لمواجهة المرض، وفي ذات مساء خرج لشراء بعض الدواء، فالتقت عيناه بها، كانت زرقة البحر في عينيها تتماوج مع ارتعاشات أهدابها الناعسة، تتلألأ في لزوجة الدمع الحبيسة، عندما رآته يلعب الضوء المنبثق عنها والمنصب كنيزك باتجاه مركز القلب، ارتعشت جوانحه للمفاجأة - مفاجأة المواجهة - التي طالما تجنبها.

كان طيف اللون الساحر ينكسر ويتماوج ليس في أعماقه وحسب، بل في كل المحيط من حوله، وكأن السماء قد اقتربت من صورتها في الماء، عند حافة اللحظ الجارح، فلا تثير حرقه المشاعر التي كمنت طويلاً في صدره فقط، بل وأيضاً أجنحة المدى على أوسع ما يمكن لها أن تتسع مع الأحلام والخيالات التي امتدت عبر خيط العمر الفتى وصحبة البحر الطويلة.

النظرة مطرقة والجفن يفتح بخفر العذراء العاشقة بصمت، تخرج من محجرها كهمة ناعمة، تثير في أعماقه مشاعر الرقة والرهافة، يهم بالكلام فيخشى أن تجرح ذبذبات الصوت حتى وإن كان هادئاً ومهموساً شفافياً النظرات المترددة الخجولة، لحظة مرت كأنها الدهر، وحين أفاق من شروده خجل من نفسه، فهمس: مساء الخير، أطرقت وأجاب كل كيائها، ولم يتحرك لسانها بحرف، كان جسدها

فقط هو الذي يلامس الأرض، أما هي فقد حملتها ذبذبات الصوت الذي همس لتوه في أذنها على أجنحته كفراشة أخف في وزنها من رذاذ الطلع، حطقت وحلقت وحطت على سطح القمر.

كان سواد الليل في عينيه يضيء على كيانها شعوراً بالدفء والرغبة بأن ترمي جسدها المخدر بفعل العشق المتصل بين أحضانه، وكانت نظرتة الحادة الفلقة تحاول أن تخفي وراءها كتل القمر التي أثقلت القلب والأعصاب.

- يا عيني عليه يضع همّه في قلبه ويصمت، لو أنه يفضفض!

هذا ما كانت تقوله لها، كلما حدثتها عنه.

أما خطواته العجلى فكانت تثير في نفسها شيئاً من الرضى وتدفعها بثقة إلى الانتظار، لكنه يهرب منها، ولكأنها قدره الذي لا فكاك له منه.

ها هو يجيء... يقترب. تراه يمد يده الحنونه فيأخذها إلى حيث تمننت دائماً، تفلت دمعة صغيرة كحبة رمان على خدها، تدس يدها في صدرها وتخرج المندبل الذي طرزت على طرفه أول حرف من اسمه، ووضعتة في صدرها على جهة القلب، ترى آثار ضربات القلب المتلاحقة على الحرف الذي تنطبق به النبضات كل الوقت، تمسحها، فيتلاً الحرف وينطق بفعل حرارة الشوق التي إنسكبت بين جزيئات الدمعة الحارة.

يمر عن البعد بها، يكاد أن يغمى عليها، حين يفتح فمه وينطق:

مساء الخير في اللحظة المناسبة، رق الحبيب ولوح بيده فرحا و محبياً ترد بكل كيانها، وترافقه نظراتها العاشقة إلى أن يختفي في الزقاق الجانبي.

رغبة عارمة تجتاح كيانه، لأن يلقي بنفسه المتعبة من الوحدة في أحضان الناس، كانوا أشباحاً، خيالات لا يفرق بين ملامحها، يلقي التحية على هذا و بيتسم لذلك، يتذكر رفقة الطفولة وجيرة الحارة و جلسات المضافة، تدفقت مياه البحر فجأة، فعمت الطرقات ووزعت زرققتها على سطوح المنازل وغسلت الوجوه المالحة سارت الأمواج بين رجليه حتى صارت البيوت مراكب ورقية كتلك التي كان يضعها وهو طفل ويلقي بها في البحر فيجرها الموج إلى مكان مجهول حتى تجمعت و صارت المخيم، الذي حبت فيه طفولته، وترددت في زواياه أنفاسه، و شردت بين طياته خيالاته و أحلامه. بين أمواجه الناعمة كانت تطل عليه بوجه كالشمس و أردية كالضياء، العروس التي طالما إنتظر أن تظهر له، وتأخذه من يده إلى قاع الطمأنينة، بين غابات اللؤلؤ، و المرجان ثم تختفي. كان يراها كالطيبف ثم يمضي وها هي الآن تعترض طريقه بقوة لا راد لها، كالقدر الذي لا بد منه، تقف في وجهه بكل ملامحها، بكامل جبروتها، وُد لو يذوب في خلاياها، لو يتكور و يختبئ داخلها، فتهداً نفسه، و يرتاح باله .

- أسمىك مهد

في البدء كان المهد و في النهاية أيضاً لقد اخترت لأضع رأسي في "حجرك" و أغفو فقد هدّني التعب، أسمىك مهد، ومن بين عينيك أبداً مشوار الأبجدية، ابدأ مشواري، لو تعرفين رغبتني؟

- أفصح، ما هي؟

- أقبلك و أمضى!

كذكر النحل، يعني! ها ؟

ضحكت من أعماقها، أما هو فكأن وحيا ما ينطق عنه، كانت أحلامه صغيرة، لكنها عسوية، كل ما يتمناه أن يشعر بلحظة... لحظة فقط بالطمأنينة.

شرد خيالها لحظة ومالت زرقة عينيها، سكتت برهة ثم قالت :

- أما أنا فأسميك البحر

عميق، هاديء على السطح، هادر في العمق، كما أنك خالد مثله!

لكن إياك أن تبتلعني يوماً كما أبتلع... وصمتت خشية أن تجرح مشاعره.

- ها ماذا كنت تودين القول؟ اكلمي يا جبانة!

- لا لست جبانة، لكني لست متأكدة، هذا كل ما في الأمر. تشابكت أيديهما، وسارا في صمت إلى أن خطرت بباله فكرة:

- ما رأيك لو نذهب نتشمس على البحر!

و انطلقا كعصفورين انفتحت لهما الحياة فجأة.

صحبة مهد أعادت له رونق الطفولة، التي كاد أن ينساها في زحمة شروده اليومي، و قلقة الدائم، أعادت مراكبه التي كان يرسلها عبر الأفق الممتد مع صفحة الماء، لتعود إليه يوماً قوارب مطاطية محملة ببشائر العائدين، وطائراته الورقية التي طالما ارتفع بها إلى عمق السماء، لتعود يوماً اسراباً من الحمام الأبيض الزاجل، المشتتل بأشعة الشمس الصباحية، الحرة الطليقة، أعادت إليه بعضاً من الفرح الداخلي الذي طالما بحث عنه، كانت الرؤى ترّف من حوله كعصافير الجنة فتحيل قلقة إلى واحة من الاطمئنان الداخلي و الحبور العذب .

صديقان نحن

فسيري بقربي كفاً بكف

معا نصنع الخبز و الأغنيات

حبيبان نحن

إلى أن ينام القمر

أحبك حب القوافل واحة عشب و ماء

و حب الفقير الرغيف

كان صوته وهو يغنى لنفسه أجمل كثيراً من صوت مارسيل صاحب الأغنية .

أما هي وقد استجابت لرغبته فوضعت كفها بكفه ، وكانت تسير بجانبه وكأنها تنتقل من غيمة لأخرى وكانت نسائم البحر الرخوة تداعب وجنتيها فتمتليء رثاها بالهواء النقي وتطير بخصلات شعرها فيضح كيانها بأنوثة عاشقة جاهزة تماما لاستقبال قلبته .

- خالد متى ستزورنا؟

- ما هذا السؤال؟ في أي وقت ربما غداً أو بعد غد تعلمين أنني لا أنقطع عن زيارتكم .

- لا، أقصد متى ستجيء و تطلب يدي ؟

- ها؟

و كأنه فوجيء بأمر لم يحسب حسابه، أو كأنه يوّد أن يتمتع باللحظة الشعرية، و كأنه كان يرغب أن تمتد إلى أطول فترة ممكنة قبل أن يضع لها الحد .

- مهد ما أجمل أن نكون عاشقين!

- ولكن ألن نتزوج؟

- أكيد، ولكن لم العجلة؟

- أخشى عليك أن تفلت مني.

- و أنا أيضاً أخشى عليك مني!

- ماذا تقصد؟

- لا عليك دعينا نتمتع بتلك اللحظة، وأبعدي عنا هم التفكير في النهاية.

- ستكون حياتنا عشقاً دائماً.

- لا شك في ذلك، المهم أن تطول حياتنا لنتمتع بهذا العشق الدائم.

\*\*\*

إحساس غريب غامض ينتابه دائماً فلحظات سعادته على قلبها يشعر بأنها غريبة عنه، كأنها طارئة، ما تلبث أن تفلت منه قبل أن تبدأ، طعم مر مرافق لحلقة، و حرقة داخلية مستمرة لا يعرف لها سبباً واضحاً. أليكون البحر هو البحر، و الحب هو الحب؟

في الوقت الذي كانت أصابعه تدعك الصحون، كانت نظراته تتطلع إلى الشاطيء الذي يضحج بالأجساد العارية، تأمل ملياً الشاب والفتاة ، كانا يركضان وراء بعضهما، يبحثان معاً عن دمية ضاعت منهما، كانت تركض بدلع أمامه، وكان يتصنع عدم اللحاق بها، ثم فجأة يمسك بها، فتقع على الأرض، فيلقي بجسده فوقها، يتدحرجان حتى يغطي الرمل أجسادهما العارية، ثم يحفران في الرمل، فتنزل هي في الحفرة فيقوم بطمرها حتى رقبتها بالرمل، ثم ينهال عليها تقبيلاً فتترنح برأسها، لكنه يستمر بتقبيلها وكأنه يغتصبها، هكذا وهي سجيبة، وحين تتوسل إليه، وبعد أن يشبع من التقبيل يبدأ بالأفراج عنها، ثم يلقيان بنفسيهما في الماء، يتوغلان في العمق حتى يبدوان كنقطة في الأفق، التحمت على بعضهما، حينها كان يهيج البحر، فتتلاحق أمواجه في ارتطامها العنيف بحافة الشاطيء ، يشعر بدمائه تهدر كأمواج البحر، و حين يقترب الغروب، يعودان فيجلسان على طاولة بالقرب منه.

وينادي عليه الشاب.

- اثنين كولا.

يضعهما بهدوء أمامهما، و يتأمل الجسد الرخو الرخيص، فيرى المرأة هنا أيضا غير المرأة هناك، لا يشعر بالرغبة بقدر ما يشعر باندهاش خفيف وهو يتأمل هذا العالم اللحمي العاري، كانت المرة الأولى التي يرى فيها لحمًا أنثوياً في العمق، يوم كان يستلقي على عتبة غرفة أمه التي تحوي ماكينة الخياطة و كرسيين من الخشب، وما زالت من يومها مطبوعة في ذاكرته صورة السروال الداخلي الأصفر الشفاف للمرأة الأنيقة زوجة ضابط الشرطة، تثير في نفسه المتعة التي ما عرفها حين رآه أول مره، ودّ لو يسترسل في النظر والتخيل لكن صوت أمه تردد في داخله.

- طريق النساء شوك يابني، انتبه إلى دروسك وابتعد عن أولاد الحرام.

حين عاد لأخذ الزجاجتين الفارغتين كان الفتى يداعب فتاته، فطاشت قدمه فعرقلت خالد الذي وقع من طوله. اعتذر له الشاب وحنق في وجهه لتتطبع صورته في الذاكرة التي تفاجأت بالندبة البارزة تحت أنفه، حين انطبعت مع فوهة البندقية المصوبة إلى كل كائن حي في المخيم يوم اشتعاله!

تكررت استراحات العاشقين بعد مشوار البحر اللاهب، في ذات المكان، وتكررت معها خدمته لهما، إلى أن جاء الفتى يوماً وحيداً، فحب أن يتسلى، فكانت دردشة عابرة بينهما، وكان ديفيد فتى قد هاجر حديثاً يتحدث الإنجليزية الركيكة، محباً للحياة بجنون، وكان حالماً مثله، دائم الحنين إلى والديه اللذين بقيا في موسكو، يلعن اليوم الذي جاء فيه إلى هنا، و يتطلع إلى يوم يركب فيه البحر عائداً إلى أحضان والديه.

أنت مثلي إذاً تتطلع إلى البحر ليحقق رغبتك يوماً، تحلم بأن تعود إليه، أما أنا فأحلم بأن يعود إلي ! منذ ذلك اليوم كانت التحية الصباحية ترافق لقاءهما في الصباح، وتحية المساء تختم صحبة اليوم مع الشاطئ الداعر. تجمعهما الصدفة ودائرة المكان ولحظات الفراغ التي يعانيتها ديفيد حين لا يوفق بصحبة امرأة عارية وجاهزة لتلقي غرائزه التي لا يعلم سواها إلى أين تنتهي وما هي طبيعتها، لكنه هو يكاد يخمن من طبيعته النزقة المتوترة. هز أكتافه يومها وقال في نفسه هم هكذا ككل الأجانب يتمتعون بالحرية الجنسية!

لكنه تعجب حين سمع إجابته على سؤاله له عن صاحبة الصورة المخبأة في السلسلة الذهبية التي يضعها في عنقه وكانت فحواها أنها لحبيبتة التي تركها هناك في الشمال، ولم يستطع طوال عامي إقامته هنا ضمن حزام الكتائب المتقدمة ان يحب غيرها ويتساءل في نفسه إن كانت على حق حين عارضت هجرته وبقيت هناك.

كانت الطائرة الورقية المزهوة بكل ألوانها حلمه الجميل الذي رافق طفولته كلما رأى مثيلاً لها، تحلق في صدر السماء الأزرق، كروح بيضاء في جسد الهي رحيم، ترتعش زعانفها مع وشوشات الهواء، كأنها تتصل مع شهيقه وزفيره، فتذكره بطائراته التي كانت دائماً من صنع يديه، حيث يقص الورق ويقلم أعواد البوص، و يلصقها مع بعضها بقطعة من العجين، ثم يلف الخيط المتصل بعقد يقوم بعقدها على قطعة من الخشب، ويطلق الطائر الورقي الذي يصير أشبه بحمامة تتصل بشرابين قلبه عبر الخيط الذي يمسك بأصابعه، فيشتعل بلذة طاغية جراء تحرر روحه وانطلاقه إلى الأفق السماوي البعيد، حتى يشعر وهو ينتقل من مكان إلى آخر أنه امتلك الأرض والسماء، وأنه قد صار أشبه بمارد يبحث عن صاحب الخيمة الزرقاء، وأنه شيئاً فشيئاً يكاد أن يقترب من تحقيق مراده.

في طريق عودته اليومية يرافق الشاطيء عبر النافذة، حتى كاد بعد رحلات محدودة، أن يحفظ تعرجات الطريق من ملامح حبات الرمل الناعمة، و بعض الصخور النائثة، في حين كان يبدو صدر الماء أبيضاً ثم يندرج في زرقتة كلما امتد الأفق، و كانت مراكب الصيادين من أمثال عمه الحاج صالح، التي انحرفت على جدرانها الخارجية آثار الموجات المتلاشية، فيما تراكمت حراشف الأسماك في قاعها ومنحتها رائحة الزنخ، التي صارت مع الأيام ندباً تدل على أصحابها ملقاة على الشاطيء تنتظر أمر فك حظر التجول، لتنتطلق بالفرح الغريزي الذي يرافق الصيادين، حين يضربون بمجانيفها سطح الماء فتنساب كالفرشات تبحث عن الصيد في الصباحات الندية.

شعر برغبة في أن يكون صياداً، ينطلق في أفق المدى المائي، كطائر طليق يحلق في الفضاء، دون أن تصده الحدود، ودون أن تردعه أعقاب البنادق! لكنه مازال يذكر، أنه كلما ألحت عليه رغبة ما، شعر بالعطش يطوق حلقه، عطش لا يرتوي بالماء، يرافقه الضيق الذي لا يزول بالانطلاق بين جوانح البريه الغافية بين كفي السكون.

للمرة الأولى، تنفرج أسارير الفرح بين غمازتي خدود أمه، ويراها تموج في أوصالها حتى تصير صبية، بقليل من التخييل يرى طرحة العرس على رأسها عروساً ولا كل العرائس، يتناثر الرضا بين التجاعيد التي تهدلت تحت طيات الجبين، الذي انكتب عليه تاريخ القريه/الذكري، والمخيم المالح، وينطبع قلة على الجبين الفتى، في حين تتلألأ القطرة المالحة وتلتصق بمحجر العين التي خبا بريقها منذ فترة.

لملم أوراقه، ثم نثرها أمامه، وأخرج حلمه من صدره، ثم وضعه إلى جوارها، وبدأ يتأمل المدى والبحر، ثم يتساءل بينه وبين نفسه إلى أين يذهب؟

أخلع جلده ويلقي بلحمه العاري ليلفه الموج المتحفر بعيداً، بعد أن يدفن وجعه في رمل الشاطيء، ويتحول إلى سمكة يجرفها الموج إلى حيث يشاء؟ أيفعل مثل ديفيد فيمتطي صهوة المجهول عساه يعود به بعد ألف عام؟

أم ينتعل حذاءه ويندفع بين سراديب الصحراء، ويصرخ بأعلى صوته حيث لن تسمعه سوى بنات أوى، فتطبق على عنقه وتأكله غربانها؟

أم يلقي بنفسه من على قمة التلة حيث تتلقفه سحابة عابرة فتحيله إلى رذاذ دقيق، يختفي بعد حين في الفراغ؟

في تلك الليلة، تحوّل المخيم إلى وجع، لفّ في لجته كل ساكنيه، بمن فيهم الفتى الذي ما كف منذ زمن، يرى في كل نقطه سوداء، تنتصب في عمق المدى المائي قارباً وفي كل ضربة جناح لطائر أرهقه السفر، فحطّ بع على شبابه طائرة شراعية. خيم الصمت الجنائزي على صدور العذارى، وأطبق أفواه الطفولة الحائرة، وأشعل النار في دماء الفتية الذين شيعوا لتوهم رفاق صباهم وندماء مراهقتهم، بعد أن لملموا دماءهم بانكسار مدهول، وأطبقوا جفونهم على صورة لحم غضّ لم يمهل الموت ليزغرد بالحياة.

كان فتى صغير، قد رشق دورية بحجر، ثم هرب، فطارده، لكنه أختفى، كان الأمر صارماً لهم، لا بد أن يقبضوا عليه أو.. على فتى يشبهه، وإلا فتوبيخ القائد بانتظارهم، وما ان وجدوا ضالّتهم، حتى انهالوا عليه ضرباً، بأعقاب البنادق، حتى فارق الحياة، التي لم تبدأ بعد في التمدد بأوصاله الطرية، سحبوا جثته، وطلبوا من السكان، أن يتعرفوا عليه، لكنّ أهل المخيم انكروه.

فَتَشَوْا جِيوبَهُ لِيَتَعَرَفُوا عَلَى شَخْصِيَّتِهِ، فَأَكْتَشَفُوا أَنَّهُ يَهُودِي!

ارتعدت أوصالهم غضبا، واتهموا المتظاهرين بقتله! ثم ثارت نيران رشاشاتهم للدم اليهودي المراق، فحصدت ثلاثة عشر صبياً ثمناً له!

حين انحنى عليه ليغمض عينيه، امتدت يداه كيدي غريق، تحاول أن تمسك بعضديه، فتنثبث بالحياة، أغلقهما وقد انطبعت في الذاكرة المينة، الصورة الحية في عز فجيعتها، وظل يحوم الفتى مصباح حول رأسه طوال الليل، حتى إذا استكان في فراشه، وتطلع إلى أية زاوية، رآه مكمواً فيها، يبخلق فيه بذات العينين السوداوين، وذات الشكيمة المتحفزة. نهض من فراشه، وخرج إلى العتمة، فرآه كتلة من ضوء يرفد على جزع التينة، يرتسم له كعلامة السؤال التي رافقته وكانت تنتصب له دائماً على صفحة الماء. وفي الصباح كان الحمام يرف على النوافذ التلكى ينقر نتوءات الجدران الطينية، ثم يضع بيوضه في زواياها، وقبل ان تصل أشعة الشمس، يضرب بأجنحته ذرات الهواء الراكدة، فتتحرك دوائر هوائية تدخل صدور الناس، فتثير فيها عيق الحياة، ثم يختفي.

صور العصافير التي كان يصطادها حين يشرق بصحبة جده، فيدس الفخ السلكي ويطمره بالتراب الأحمر المتفتت، ويربط فيه الدودة الشرك، وفي لحظة يطبق شقاه على العصفور الذي كان كتله صغيرة من الحياة، ألقته يد الله في لحظة رضا، في الفضاء، تضطرب في ذاكرته و يأسى لها وقد صار عصفوراً مثلها يلتف حبل أشبه بدفتي الفخ، كل لحظة حول عنقه ولا يجد له مهرباً أو فكاكاً.

الطفولة بكل برائتها وحيويتها تمتليء بالشقاوة والمحاولة الدائمة لاختراق الممكن، من رشق شجيرات البرتقال في البيارات الممتدة عبر مشاوير الطفولة ورحلاتها الجميلة... إلى ثمار التين الشوكي المرتصفة في الحارات البعيدة، التي كان يذهب إليها كلما زار أقاربه، في الأحياء المتاخمة للحدود، إلى عمليات البحث عن طوابع البريد وغطاءات الزجاجات الممتلئة بها أكوام قمامة عسكر القوات الدولية، التي لم تكن معرفته الطفولية تعرف مغزى وجودهم بين المخيم الذي ولد فيه وبين القرية التي ولد فيها أبوه، والتي يحدثه عنها باستمرار جده العجوز، والتي كلما مرا بها، أشار إلى تكناتهم و قال:

هؤلاء هم القدر الذي يفصل بيننا!

منذ ذلك اليوم صارت أمواج البحر تهدر في الأعماق تحفر الوقائع الصغيرة فترتبط ببعضها ويصير لها معنى بحة العصافير، همهمات الأسماك، اصفرار وجه الشمس، الزرقة الكالحة في وجه أمه، تجاعيد جده، خيبة المهدي، البكاء المكتوم في صدور الجارات، الجلبة الدائمة في المحيط، حالة الرعب التي ترافق "البوريهات" الحمر والزررق، الغضب الذي يضخ في العروق عند رؤيته لحي المستوطنين.

يتجشأ البحر، ويلقيه من بين طياته كغريق لا حياة فيه، ينظر إليه فلا يرى سوى الزبد، تظهر له الجنية كوحش، على شكل دوامة تسعى لاغراق مراكبه التي القى بها يوم كان طفلاً، وتمتد أذرع الماء كقضبان تلتف حول جسده وتضغط عليه حتى تهصر عظامه، يركض ويركض حتى يغرق في العرق، وما أن يصل اليابسة، حتى يمتد له غصن استطل من شجرة برتقال تنتصب على حافة النهر المنساب تحت سياج البيارة المزروعة قرب الوادي.

كانت أوداجه قد جفت، وكاد العطش أن يفتك به، حين تالأأت انسيابات ماء النهر كأصفي وأجمل ما تكون، فما كان منه إلا أن إنبطح تحت أغصان شجرة البرتقال، على حافة الوادي، شعر بالراحة والأمان وبدأ يغرف بيده قبضات من الماء العذب، الذي ينساب في مجراه منذ الأزل، يشرب،

فيسترد حياته شيئاً فشيئاً، إلى أن شعر بأنه يضح بها، حينها شعر بثقة واضحة وهدوء ما شعر به من قبل، فسار مع مجرى النهر... إلى أن صار على مشارف المخيم. حالته المفاجئة بقدر ما ألقته في نفسها شيئاً من الراحة، أثارت فيها أيضاً شيئاً من الارتياب.

صار تخيلها لنفسها ملقاة بأحضانها، ليس حالة من الوهم، التي كانت تثير في نفسها، الخجل بل صارت شيئاً من الحلم المشروع، لكنها في نفس الوقت، بدأت تشعر بالخوف والقلق على رجلها، الذي رغم ما يبدو فيه من هدوء، فإنه ينكفيء على قدر من الغموض المثير للريبة!

إنه شاب فتى أضناه الانتظار وأرقه "العوج" ولا مبالاته التي رافقته طويلاً تكاد أن تنقلب إلى مبالاة زائدة، حينها سيكون مع الخطر وجهاً لوجه.

كان يطل عليها في الصباح، وعلى وجهه ابتسامة عريضة، واندفاع يكاد أن يحملها بفعله بين ساعديه، لولا أنهما يلتقيان أمام أنظار الناس، نظراته حادة تكاد تحرقها بحرارتها المتدفقة، يضح بالحياة التي بدت وكأنها قد كمننت فيه دهرأً، ثم استيقظت فجأة. طالما تمننت اندفاعه نحوها، لكنها تكاد لا تحتمل أن تنصب هذه الاندفاع كليها في لحظة واحدة، لطالما تمننت حبه أن ينساب رقراقاً في أعصابها، لا أن يجيء ربحاً عاتية تكاد تمزق قدرتها على الاحتمال.

أما هي فيبعد أن كانت تربط شعرها في جديلة واحدة، تلقبها كهومها وراء ظهرها، حررته من قيده، وصارت تطلق له العنان، فينتشر على كتفيها، ويعطى ظلالاً لعنقها المرمري الطويل، الذي يبدو كعنق مهرة جامحة، ثم تضع حمرة خفيفة على شفتيها ما أن يراها، حتى تغلبه النظرة التي تشد شهوته لامتصاصهما، وتكتحل فيزيد اتساع عينيها الذي يبدو مع الرموش الطويلة المعقوفة، كأنه أفق يمتليء بالأسرار السحرية، التي تدعوه بقوة لاكتشافها. فتاة تبدو أمامه هي المهد الذي اكتشفه فجأة، امرأة ولا أجمل لا تمت بصلة لتلك الصبية التي كان يعرفها منذ وعى الدنيا، امرأة غامضة كل ما فيها يغيره بالولوج لاكتشاف أسرارها.

كانت السماء داكنة تودع الشمس بألم وكانت روائح الصخب تثير في النفس الضيق والضجر، حتى إذا أطبق الليل أجفانه، أمسكت اللزوجة بتلابيب الفتى وشدته إلى قاع سحيقه مخيفة، فلا يحتمل وطأة الكابوس، يصحو فتتراءى له الحمامات تكسو صدر السماء، بلونها الملائكي ومهماتها الطاغية، تواصل بث رسالتها إليه التي ما فهم مضمونها، إلا يوم لطم سحنته بكف يده، وكانت قدماء قد غاصتا في الطين الموحد، فتشبث بغصن شجرة البرتقال الذي وخز كفه بألم وبقطرة من الدم، تأملها وقد سألت مع الجذع حتى اختفت في التربة، وصار الجذع من يومها عضواً منه وصار عصير البرتقال لا يختلف كثيراً عن عصير الحياة الذي يدب في أوصاله.

تذكر البحر، وانتبه إلى أنه قد مرت فترة انقطع فيها عنه، قضائها في التعرف على مهد والاتصال بالبيارات والتعرف مجدداً على رفاق الطفولة الذين شبت في اوصالهم الرجولة، وإمتلأوا بالصخب، فأعادوا الحياة إلى المخيم، بعد أن غفا طويلاً، حتى ألقى الضجر بالنفوس، ذهب إليه وتأمله فرآه ساكناً لا موج يعلوه فيه، ولا سمك يتراقص في أعماقه، تطلع إلى البعيد عبر صفحته المضطجعة على ظهرها، فرآه هرماً، ومن شدة ما ألح بالتعرف على حاله، قذف له البحر بما في أعماقه، وفي لحظات طغت على سطحه القاتم جثة متيبسة، لم تكن سوى جثة هلال بن الحاج صالح.

اندفعت مياه البحر إلى حلقه، فلدغته ملوحتها ومرارتها الطاغية، تطلع إليه، فشعر بالاسى والمرارة للأيام التي قضائها بصحبته، تائهاً ضائعاً ينتظر المستحيل، نظر إليه مرة أخرى فرآه منكسراً



ذليلاً، يلقي مياهه بصمت تحت قدميه وكأنه يتوسل إليه المغفرة، همّ بأن يبصق عليه، لكنه تراجع، وظل يدقق النظر في الجثة الملقاة على امتداد المدى، ويفكر في اليوم الذي تعود فيه الحياة إليها!

أخذ يقلب الأمر بينه وبين نفسه، ويقول: إذا ما أخبرت العم صالح بما رأيت سيتهمني بالخبل، وسوف تنقلب حياته إلى جحيم، وهو سيتوزع بين أمرين أحلاهما مر، إما أن يفقدني وإما أن يفقد ما يعيش من أجله، وينتظر كل مساء أن ينشق صدر البحر عائداً بمركب مليء بالسّمك، فأثر ان يشفق على الكهل، وأن يكتّم ما رأى، ولكن من قال أنه رأى؟ أكان وهما ذلك الظل الذي طفا للحظة على صفحة الماء؟ أم تراه كان جثة حقيقية، لكنها لم تكن جثة هلال ابن الحاج صالح؟ لربما كانت جسداً قذفه قارب مطاطي غرق بصاحبه قبل أن يصل حافة الشاطيء؟ إصطكت فرائصه للعارض الذي جال بخاطره؟ أيعقل ذلك؟ أيتحقق الحلم وينتهي طول الانتظار بالفاجعة؟

كادت الأسئلة والاضطرابات والخيالات والأوهام، تذهب بعقل الفتى لشدة ما أطال تقلب الأمر. وكعادته حين يشتد به الأمر لا يجد نفسه إلا وقد عاد راغباً في إلقاء كتلته المهشمة في رحم أمه!

وزرز وتطير من فوق رأسه رصاصة مرت كنيزك سقط فجأة وشق صدر الليل فينكمش على نفسه، يملأه رعب الموت الذي يفاجيء العصفير ولما تنل بعد حصتها من الحياة، ينقص عمرها، ولما تقم بعد بالشدو في أحضان العذارى اللواتي يفرن بالأنوثة كجداول المياه العذبة، التي كان ينصب الفخاخ للطير على جنباتها، حتى إذا ما طال به الانتظار، وشعر بالعطش، إنبطح على صدره و"غب" من مياهها، فارتوى.

أنة وعويل يذبيان النفس حزناً، وجلبة خرجت على الحظر المفروض على المخيم، وامرأة تشق الصدر وتلطم الخدود، وعجوز واجم وفتية يتصايحون، ثم جثة محناة بدماء حارة قانية، ترتفع على الأكف، ثم يعلوا الهتاف وتطلق الزغاريد..

وغريبة تعدو كعادتها بقدميها العاريتين وشعرها المنكوش، وثيابها الممزقة، تتطلع بعينين زائغتين "مطفأتين" وقامة قصيرة عجفاء، تتأرجح مخلاتها على كتفها، تقاثل كعادتها أيضاً لتضم الصريع إلى صدرها، حتى إذا ما طافوا به الأزقة والحواري والشوارع، وإنضم إليهم كل سكان المخيم، من الطفل الرضيع، حتى الشيخ الهرم، ذهبوا به إلى المسجد، فصلوا وكبروا، كانت في مركز المعمة، وحين يقومون بدفنه ويذهب الجميع تبقى هي، تحتضن الشاهدة وتقبلها، وترش الماء، وتطرح ما في مخلاتها، فتقاسمه الطعام، وتظل في رفقة إلى أن يخر صريع آخر فتتحول عنه إليه.

كانوا يشكلون صحبة واحدة، هؤلاء الذين يتساقطون واحداً واحداً، بعد أن توزعوا في الأزقة والحواري يبحثون عن أحلام الطفولة وعن عنفوان الرجولة، كانوا برؤوسهم الحليقة يصطفون في طابور الصباح، ويرددون الأناشيد، ثم يمدون أيديهم، حين يمر الأستاذ، يمسكون مناديلهم ويكتمون شقاوتهم، حتى إذا ما طالت أظافر أحدهم دون أن يقصها، كانت اصابعه الطرية تلتهب تحت حواف المسطرة "، ثم يصعدون إلى الدرس، يتقدمهم خالد الطالب المجتهد، وما أن يطل الأستاذ بهيبته، حتى يصيح فيهم: قيام، جلوس.. قيام جلوس..

وفي الحارة تنفلت الشقاوة من عقالها، يلعبون بكرات القماش وبالدهان ثم يتحلقون، فيغني ما يحفظه من المديح، وحين يزورهم أحد أقاربهم الكبار ويسأله ماذا تود أن تكون حين تكبر، يجيب دون تردد طبيياً، لكنه في أعماقه يحلم بأن يكون فناناً، نجماً يغني وراء الميكروفون. مصطفى الذي كان متفوقاً في حصة الرسم، كان يحلم بأن يكون رساماً، وعدنان الذي كان مغرماً بحضور أفلام السينما، حسام الذي كان يعشق الشعر، ورأفت الذي كان يقوم بإصلاح الأجهزة الكهربائية لأهل الحارة، وهو

الذي كان يشعر بالمتعة الخارقة حين تمتد أصابعه الصغيرة مرتعشة، فتلتقط "شبابه" جده فيحاول عليها بالساعات...

حين مات ابن خاله البكر ولم يعيش سوى بضعة شهور، كان الوجوم والحزن الصامت يخيمان على وجه أمه، كان صغيراً، فسألها: أين ذهب وائل يا أمي؟ إلى الجنة أجابت، ثم قالت، حين يموت الأطفال فإنهم يصيرون طيوراً في الجنة. ولكن أين تذهب أحلامهم؟ الطفل لا يحلم يا بني، فيستنتج من ذلك أنه لم يعد طفلاً..

\*\*\*

الح عليه جده أن يرافقه في الصباح إلى البستان، فالشتلات أيها الولد قد كبرت، وبدأت في حمل الثمر، الذي سرعان ما ينضج ويثير في النفس الإرتياح. كان الجو الآخذ في التلبد، يثير فيه الرغبة بالبقاء، فالصخب والحركة اليومية التي لا تهدأ حتى في الليل، بدأ بإخراجه من عزلته، فما عاد يفكر سوى بالاضطراب الذي يحيط به، وكان نفسه قد انفجرت عما تراكم بداخلها على مر السنين، فإكتشف له كل شيء، وأكثر من ذلك صار يرى أن كل جزء من المحيط إنما هو جزء منه، عضو من أعضائه، وكأنه إكتشف فجأة أن الصخب في الخارج تماما كما كان بداخله.

ما أن امتطى ظهر الحمار وراء جده، ولما تكمل الشمس إشراقها بعد، تصبّحاً بالغربية التي تطلعت إليه ببله وإندهاش، ثم هرولت وراءهما تغمغم كعادتها، أيقن أنه لو كان على الأرض لإحتضنته، دس يده في جيبه وأخرج قطعة النقود المعدنية وألقى بها إليها، فكفت عن ملاحقتهما، أما هو فشرذ ذهنه يفكر في هذا الكائن المسكين، الذي يتحلق الصبية الصغار حوله يهتفون:

-عرب.. عرب.. غريبة

فتلحق بهم وهي تصرخ بأفزع الشتائم. يخطر بباله الدرويش عبدالله بحذائه الضخم ومعطفه العسكري، اللذين كان يرتديهما صيف شتاء، ويسير على قدميه يوماً من حافة الحدود السابقة إلى حافة الماء، وكان صغيراً مثل هؤلاء الصبية، وحين يمر عبدالله يناديه وأترابه قائلين: عبدالله فيجيب الدرويش: لا اله إلا الله ولا يمل أبداً. ولا ينرفز حتى لو ظل يرددتها طوال اليوم إلى أن ثار به اللغم فقضى شهيداً!!

تذكر الأحاديث التي جمعها في ذاكرته حول الغربية، التي كانت صبية جميلة، لكنها يتيمة، زوّجها أبوها رجلاً غريباً سرعان ما ملّها، وتزوج عليها، أنجبت له أولادا عديدين، لكنهم ماتوا جميعهم، ولم يبق لها سوى اسحق الذي كبر، وصار أملاً في الدنيا، وفي يوم من الأيام عضه كلب مسعور، فأصابه بداء الكلب، ولم تنجح كل ترياقات المشايخ وأصحاب "الحجب" في شفائه، إلى أن بدأ يعوي.. ثم مات..

وكان أن دفنوه دون أن تدري، خوفاً عليها من الصدمة، وبعد ثلاثة أيام علمت بالخبر، فركضت حاسرة الرأس كمن لدغتها أفعى وأخذت تسأل عن مكان دفنه إلى أن اهتدت إليه، حفرت القبر بأظافرها وإحتضنت جثة صغيرها جالسة في الحفرة وبقيت هكذا ثلاثة أيام بلياليها، إلى أن إفتقدوها، وبقيت أربعين يوماً ذاهلة تكلم نفسها، ثم تخاطب الأرواح وبدأت القصص التي تحكى عنها دائماً والتي ما زال

يذكرها، وكان يرتعد خوفاً وهو صغير حين يسمعها، كانوا يقولون عنها أن دمها "زفر" ومن كان دمه هكذا، تخرج له الأموات في الليل، تحدثهم فيعوجون لها لسانهم. أما الآن فهي الدرويشة التي ترى في نفسها أما لكل المخرجين بدمائهم!

- هل تعرفها يا جدي؟

- آخ يا بني، لقد كانت هذه المسكينة مطمح الشباب أيا منّا، الجميع كانوا يتوددون لها، ويحلمون بها زوجة..

- حتى أنت!!

- حتى أنا، يوم رأيتها أول مرة، كنت كمن أصيب بضربة شمس، عدت إلى البيت لا أفكر إلا بها، لم أتناول طعام الغذاء يومها، وبقيت أذرع شوارع القرية أملاً في أن أراها، حتى فاتحت أمي بالأمر، ثم أرسلتها لتخطبها لي، سامح الله أباه، رفض يومها أن يزوجني إياها، كما فعل مع جميع الشباب، إلى أن جاء القرية يوماً رجل غريب، كان يعمل في الحجاز، كان "زنقيلاً" فزوجه إياها بمهر ثلاثمائة جنيه فلسطيني!!

كانت نسمات الصباح الباردة تلسع يديه الممسكتين بجذع جده، وشيناً فشيناً كانت إستدارة قرص الشمس تتضح في الأفق جهة الشرق، فيشعر بأنفاسه الدافئة تتوزع في الأنحاء حوله، فترتخي أعصابه، وتذهب رغبته في دفء الفراش ويصير أكثر إستعداداً للعمل.

\*\*\*

## ربيع الحقول

حين يرتفع قرص الشمس ويتوسط صدر السماء، ويعم دفته الوهاد والتلال تتسرح ضفائر الحقول، وتتهدل سيقان الزرع مع النسيم الذي ينعش الصدور التي طالما تضمّخت بالرطوبة، تنز الفراشات، وتسعى الحياة في الأنحاء وتنتفتح أزهار الحنون فتتراعى الدنيا له عروساً في كامل زينتها، ويترقرق ماء البحر ويصفو، حتى يرى أصدافه، فيحن لأيام الطفولة، يوم كان يشمر ساعده فيجمعها، ويلضمها بالخيوط حتى تبدو كعقد الياسمين، يزين بها جدران غرفته.

للطبيعة تأثير طاغ على النفس، تنفج أسارير الناس بفعل الطقس الجميل، وتصير الحياة رغبة متصلة بالفرح، تستعد النساء لالتقاء الغياب، والفتية لإنتهاء العام الدراسي، وبعض الشباب والصبايا لفصل الخصب، وتبدأ الأفراح تدق أبواب البيوت الصدئة، أما هو فينتظر أن تطل عليه الغيمة التي تجيئه كل عام في موعدها، تمر وحيدة في يوم صحو، تعكس صورته التي ما حفظ سواها في مخيلته، تمر ببطء، وتبتسم، يعيش معها لحظات ولا أحلى، ثم تلوح له، وتقول: نلتقي في العام القادم!

يشرق وحيداً ويلف مع الحدود، البيارات تنتشابك وكأنها تشكل سداً أو حصناً يخبيء في داخله الناس، يتطلع إلى الأرض الحرام، تتراعى له أشباح من بعيد، يعرفها جيداً حين تجيء على هيئة السائحين أو الفاتحين مدججة بالقوة والجبروت.

يهرب إلى البحر فيجده سداً يقف في وجهه ويمنع عنه إندفاعة الإنطلاق باتجاه الغرب، يسير محاذيا الشاطئ فيراه رقيقاً كظله الذي ينطرح بجوراه على الأرض.

كأنني في سجن أدور .. أدور ولا ينفث المدى أبداً، ما أجمل الحياة حين تنتفتح الأزهار وحين تشرق الشمس وحين تزقزق العصافير، لكن إنغلاق المدى يثقل صدري ويخنق أنفاسي!!

\*\*\*

لماذا أحبه؟

يتردد في أعماقها السؤال، ويتحول إلى دوائر من الصدى الذي يتجاوب في نفسها، فيثير شيئاً من الأسى والحيرة، بل لماذا يخطر على بالها مثل هذا السؤال؟ وكانت الإجابة طوال كل تلك السنين تبدو بديهية، ليست بحاجة إلى برهان.

لكنها الرغبة التي تضغط أعصابها، الرغبة المتأججة التي تتحول إلى أحلام، إلى رموز، وأحياناً إلى كوابيس في الليل، حين تتكور على نفسها، ولا تجد في أحضانها سوى الذكرى. لقد بدأت تفهم

حقيقة شعورها كلما رأت جاراتها يسرحن شعورهن بعد الحَمَام الصباحي يوم الجمعة، وتفهم منابع تلك الغيرة التي تأكل صدرها، وتفهم مقاومة الغريزة التي صارت عدوا لها، تواجهها بأمومة الولد.. الذي كانت ترضي أحضانها بدفنه يوم كان صغيراً، ثم صار يتشكل ككائن شيئاً فشيئاً.. إلى أن صار رجلاً، ليس رجلها على كل حال. أما الصورة فهي ليست أكثر من صورة، تحمل الذكرى وتثير شجن الأيام العذبة بأحضانها الدافئة، ولكنها عاجزة عن أن تستجيب لرغبة الأيام أو لحاجة الأنوثة.

كان صوت الرجل وحديثه يثير في أذنانها وقعاً لم تعهده من قبل، كان مثل صوته يبدو أخوياً أيام صباها، وصار محرماً تستثير كل حصونها لتبعد عنها مجرد التفكير بالرغبة التي قد تدفع إلى أن تخطر ببالها أطيايف الذكرى.. ذكرى الرجل الذي قضى في ليلة يبحث عن واجبه تجاه الجميع، وحين تقدمت بصينية الشاي. انغرزت نظرة الرجولة التي طالما تجنبتها في صدرها، حتى أنها لم تستطع الجلوس كعادتها، وهي أخت الرجال، فما الذي أصابها؟

كادت أصابعها أن ترتعش وأن تدلق أكواب الشراب الساخن، آه لو حدث ذلك لتمنت حينها أن تنشق الأرض وتبلعها، تخيلت للحظة أن الرجل الجالس إلى جوار الشيخ، إنما هو الرجل الذي حملها على ساعديه، وعرفت منه معنى أنوثتها، وكأن صورته المعلقة على الجدار قد ترجلت أخيراً، وحققت لها في لحظة هبطت من السماء كل رغباتها، فأرادت أن تندفع بكل قواها إليه، لكن كيف يمكن لها أن تخذع نفسها، فرغم هذا الود وذلك الحديث العذب ورغم النظرة الحانية، يبقى هذا الرجل هو أبو علي الفران، الرجل الخلق الذي ما أساء يوماً لأحد، والذي ظل طوال عشرين عاماً، يتلقف عجبها فيلقي به في بيت النار، ثم يعيده إليها خبزاً مشتهى، ويكاد لا ينظر إليها نظرة كهذه التي تراها منه الليلة، وتكاد لا تذكر يوماً رقة في صوته على رغم الكلمات القليلة التي دارت بينهما طوال العشرين سنة الماضية. ولكنه هو أيضاً الجار القريب إلى النفس، والواقف إلى الجوار في كل محنة، ويبقى هو أيضاً الرجل الأرملة الذي ماتت زوجته منذ عام، وتركت له كومة من الأولاد والأعباء والرغبات المحرومة. هو مثلها إذا.. لكنها ليست أرملة، أم تراها هي بحكم تلك؟ أبعد الله الشر.. ولكن إلى متى ستبقى تنتظر؟ أين أنت يا خالد؟ أترأى على شاطئ البحر، تنتظر صيدك؟ فتعود مهزوماً بشباك فارغة آخر الليل؟ فألم أشلائني إلى أشلائك ونظلي تاكلنا الذكرى ويسحقنا الأمل؟

- يا أبا علي ما هي أخبارك مع العائلة؟ أقصد تراك "متلبكاً" مع أولادك؟

- لا أخفيك يا عمي أن موت المرحومة قد قصم ظهري، فالمرأة في البيت هي الغطاء الذي يستر ما فيه، وحين تذهب، ينكشف هذا الغطاء، ولولا رافة الله بنا، ولولا أن الأولاد هم أولاد حلال، لكنت أن "أطق" من حياتي.. على كل حال مستورة، البنت الكبيرة سمية تقوم ببعض الأعباء، تطبخ وتغسل لكنها مطالبة بواجباتها المدرسية أيضاً، ولا أخفيك أنني أقوم ببعض هذه الأعباء أحياناً، حين يرق قلبي لحالها، وأراها على أبواب إمتحانات أو ما شابه ذلك.

- ولكن المرأة ليست للطبخ والغسيل فقط!

يقول الشيخ ذلك هامساً.

- صحيح ولكن ماذا أفعل؟ علي أن أحتمل نصيبي إلى أن يفرجها الله

- فلماذا لا تفكر بالزواج إذا؟

- يا عمي، المرحومة ما زالت ذكرها تملأ البيت، ثم هل يمكن أن أفكر في أن أخسر الأولاد، وهم كل ما لي في هذه الدنيا؟

- يا بني إنها مشيئة الله، وقد مر على وفاتها عام، وأولادك يجب أن يفهموا حاجتك ، هم أيضا بحاجة إلى من تقوم على خدمتهم.

- صحيح، لكن الأمر بحاجة إلى وقت، وإلى امرأة مناسبة تفهم الوضع ويتقبلها الأولاد.

- إذا فأنت تفكر فعلاً بالأمر؟

- أكذب عليك لو قلت عكس ذلك!

كانت تسمع الحديث الدائر بين الرجلين باهتمام شديد، وتتساءل في دخيلة نفسها، إن كانت لأحوال الجار الأرملة علاقة بتلك النظرة التي إنغrust في صدرها قبل قليل.

\*\*\*

أه لو يعود لها عقلها!

نفث الجملة من صدره كأنه يخرج آهة طال إحتباسها، ثم شرد لحظة رأى فيها "كومة العظم" امرأة تضج بالأنوثة، ورأى نفسه شاباً يقُد الصخر، تغلي دماؤه حين تتبختر الحسنة أمام ناظره، حتى صار فجأة وجهاً لوجه مع الذكرى التي غابت بعيداً في الزمن الماضي، حين بدت لحظة توقف دوران الأرض عندها فجأة.

- جدي ما بك ، صمت فجأة؟

- آه لا شيء... لا شيء يا بني. هذه المسكينة بحاجة إلى من يرعاها ويعطف عليها أليس كذلك؟ انها منا على كل حال.

- طبعاً.. طبعاً.

منذ ذلك اليوم صار الشيخ يحرص على أن يحتفظ بأطيب حبات البندورة والخيار، حتى إذا ما اعترضت طريقه الغريبة، أعطاها اياها، فخطفتها من يده وتمتمت بكلمات غير مفهومة، بينما تبدو علائم الإرتياح على وجه الشيخ، ترافق نظراته التي تمتد معها وهي تقضم حبات الخيار ببله، وتتطلع بين قضة وأخرى بشيء من الرضا، وتتمايل في مشيتها، حتى تبدو وكأنها تسير على عكازتين.

يثب إلى ذهنه فجأة حديثه المسائي مع الفران، فيرأف به، ويتذكر حاله يوم ترمل قبل أربعين سنة، ولم يجد يومها من ينصحه بمواصلة الحياة، فظل أسير الذكرى الجميلة، التي تأججت بفعل النكبة، وصار الانشداد لها جزءاً من أحلامه التي لا يفعل شيئاً من أجل امتلاكها... سوى الإنتظار، بل أنه كان يعتقد أحياناً أنها ما زالت على قيد الحياة... هناك، وفي إنتظاره، وما عليه سوى أن يعود، ولو بعد ألف سنة، إلى أن دخل نفق الكهولة، فتسربت من أعصابه الرغبة، رغم أنه لا يعدم لحظات تمر به، يطمح فيها بدفء أنثوي يضمه إلى صدره أو برفيق يؤانس وحدته، وربما كان اجتهاده بالعناية بالزرع هو كل ما تبقى له، ليشعر بجدوى بقائه على قيد الحياة.

يعيده صوت خالد الملتصق وراه على ظهر الحمار إلى جادة الواقع، فيفكر فيه للحظة. ما بال هذا الفتى لا يفكر بالأنثى، فيطرح السؤال على مسمعه بصوت عال؟

- بني ما بالك لا تفكر بالزواج؟

- رأيك يا جدي؟ والدراسة؟ ألا تريدني أن أكمل تعليمي؟

- ولكن ما المانع يا بني؟ تتزوج وتدرس في نفس الوقت.

- ومن يعيلنا؟

- لا، لا عليك... هذه الأرض هي رزقنا، وزوجك لن تزيد من أعبائنا، تقيمان معنا، ويمكن أن تعمل بالصيف، ثم هناك خياطة أمك، كذلك ما يصلنا من أموال يرسلها أبوك.

- أبي؟

يتساءل الفتى وكأنه يحدث نفسه. لا شك أن له أباً في مكان ما، ينتقل من عاصمة لأخرى، تنتقع أخباره التي تجيء كالحكايا، وتنتقع نقوده التي يعتقد أنها كل واجبه نحوهم، يا له من أب غائب حاضر، يملأ الذاكرة والأعصاب والوجدان، وتتمنع الأرض عن أن تنشق عنه، فيشبُّ في لحظة خارقة ويقف أمامه، كائناً بلحم ودم.

- ما بالك لا ترد يا بني؟

.....

- خليك على دلالك. سيجيبك يوم تطلب ذلك منا بنفسك، وكما يقول المثل: لا تطلب من المغني يغني، حتى يغني لحاله.

يجيء اليوم؟ نعم سيجيء يوم يخرج فيه المخيم عن بكرة أبيه في عرسه، يغني وينشد ويهتف باسمه، وتلبس فيه مهد ثوبها الأبيض، وتزينها صديقاتها، فتصير أجمل عروس وأشهر امرأة، يحملها ويطيران معاً على سحاب الموج، كعصفورين ينتقلان بين الحقول والبيارات، لا توقفهما الدوريات ولا يطالهما الرصاص، ويشهد على زواجهما رجل عاش حياته يأمل رؤيته. وحين تخلو الدنيا إلا منهما، تلتقي الشفاه بالشفاه، ويلتحم الجسد بالجسد، فترقص الأسماك في أعماق البحر، وتحلق أطياف السنونو، ويزهو نوار اللوز، وتسقط سحابة عذبة من السماء، ويفيض البحر بحنانه، فيخصب الأرض، وينفرج من عناقهما فجر أبيض.

\*\*\*

كانت تحت الخطى مسرعة في طلب أمر ما، حين لمحها من بعيد. لم تنتبه له، فأسرع في أثرها، حتى لحقها، وكانت قد إنعطفت لتوها باتجاه بيت الأستاذ جميل.

- مهد... مهد.

التفتت وراءها وقد فوجئت به.

- أهلاً خالد.

- لم أرك منذ مدة، أين كنت؟ لقد إشتقت لك.

- وأنا كذلك. لكنني مشغولة بأمر هام.

- هل ترافقيني إلى البحر؟

- البحر؟

قالتها بشئ من الإستغراب الممزوج بشئ من الإستنكار وربما الإدانة. وربما أضافت في سرها... البحر يا خالد والمخيم يشتعل؟

لم يفهم سر عدم إهتمامها، لكنه لم يشأ أن يلح في عرض رفقته له للسير على شاطئ البحر. بعد برهة من الصمت، عاد وسألها:

- إلى أين أراك تسيرين هكذا على عجل؟

- لاشيء مهم، لا تشغل بالك بي، أنا ذاهبة لبيت الأستاذ جميل، لأرى صديقتي ميساء، إبنته.

وقبل أن تترك له الفرصة لتقديم إقتراح آخر، أضافت قائلة:

- أراك فيما بعد... إلى اللقاء.

ثم لوحت بيدها، وواصلت سيرها بإتجاه بيت الأستاذ جميل.

بقي في مكانه لحظة يتابعها بنظراته، وهي تحث خطاها بإتجاه بيت الأستاذ.

بدأ طريق عودته، شاعراً في دخيلته بأن هنالك شيئاً ما يشغل بالها ولا يعرفه، ولكن ما هو هذا الشيء؟ الذي تخفيه عنه سميرة؟ وهل يمكن لها أن تفكر بشيء دونه؟ وهو الذي كان يعتقد أنه كل عالمها، وأنه محور إهتمامها الوحيد. حتى دراستها لم تكن تشغلها عنه، فماذا حدث؟ أم يمكن؟ وطراً الخاطر بباله، أم يمكن أن تكون لها علاقة بما يحدث من حولنا؟

مر به شاب يحث خطاه على عجل بالإتجاه المعاكس، حتى كاد أن يصطدم به، تّبرّم، ورافقه بنظراته العاتبة. ثم... فوجيء به يطرق باب الأستاذ جميل.

- ما معنى هذا؟ كاد أن يطير عقله للإحتمال الذي جال بذهنه، فما استطاع أن يمنع نفسه من أن يركض، ليجد نفسه أمام بيت الأستاذ جميل يطرق بابه بعنف. انفتح الباب عن الأستاذ، الذي بدا أنه فوجيء بخالد. ثم علت محياه الدهشة حين بادر إلى سؤاله على الفور، دون أن يسلم:

- أين سميرة؟

- إنها بالداخل. ولكن لماذا؟

- أريدها أن تجيء معي.

- سألتك لماذا؟ هل هناك أمر ما؟

- لا... لاشيء، لكنني أريدها أن تخرج.



حار الأستاذ بأمر الفتى، وما عساه يفعل. فكر قليلاً ، ثم رأى ضرورة أن يضع حداً لهذا الجدل المتوتر على مدخل البيت. دعاه للدخول. تردد خالد، لكنه لم يجد بداً من الإستجابة.

كان نفر من الشباب والصبايا الذين يعرف أغلبهم جالسين باهتمام، تترقب عيونهم القادم الجديد، وتصيح أذانهم سمعها، ولا تقوى وجوههم على إخفاء قلقها من الدق العنيف الذي كان قبل قليل. حتى إذا دخل عليهم خالد، بدت الدهشة على الوجوه جميعاً، باستثناء سميرة التي تلفع وجهها بالإنسراح.

- ماذا تفعلين هنا؟

سألها بغلظة مفاجئة.

ترجع الانسراح الذي ارتسم على وجهها للحظة، وقد ظنت أنه جاء مشاركاً لهم حتى فوجئت بسؤاله، ففهمت ظنونه التي ذهبت به إلى البعيد.

- وما شأنك بي؟

ردت عليه بحسم.

- أأست خطيبك؟

أجابها بغضب.

- لا... ليس بعد.

ردت عليه بجفاء.

شعر بالحرج، ولم يحتمل الموقف، فاندفع غاضباً، وخرج، كما جاء دون أن يسلم على أحد.

\*\*\*

كان الظلام المرعب يحيط بها، حتى تكاد لا ترى شيئاً، تشعر بالرعب والضيق والوحدة تطبق أنفاسها ، وترعش أوصالها، يضطرب قلبها، ويجف حلقها، فتلتصق بالحائط الذي يبدو لها جداراً بارداً رطباً. تتحسس المكان بيدين ضعيفتين مرتعشتين، تفاجئها الرطوبة ورائحة العفن. تتقطع أطرافها ثم تراها تتحلل، فيخيل إليها أنها في قبر، قد دفنت فيه حية، تتحسس ثوبها الذي إتشح بظلمة الليل، فلا تكاد تقطع إن كان ما ترتديه ثوب الحداد أم جدران القبر.

ينشق صدر الظلام فجأة عن بؤرة من الضوء بعيدة، لكنها تقترب شيئاً فشيئاً، ثم تكبر، حتى تتراءى لها شبحاً لا تستبين ملامحه لكنها تأنس له، يقترب منها بحنو، ثم يمد لها يداً ناعمة، لقد كان شبح رجل طالما طال انتظارها له. تشعر بها كخط فاصل بين الحياة والموت، بدأ تمتد لها من ظلمة الموت لترتفع بها إلى آفاق الحياة. تتشبث بها بكل قواها، وتنهال عليها تقيلاً بكل ما في جوانحها من رغبة، وما في غرائرها من إندفاع. يتحول المحيط إلى ضياء، ويرتدي أردية بيضاء، تثير في كيائها البهجة. وفي اللحظة الحاسمة تمتد لها اليد بسكين حادة مشرعة ومنتصبة كالقدر، تغرزها بثبات في بطنها. تؤلمها الطعنة، فتنبثق عنها أنة صاخبة، سرعان ما ترتد إلى أعماقها بالألم ، تتحول المرأة إلى

صرخة هائلة، لكنها مكتومة لا تشق صدر السماء، بل تذوب في أعماقها، تنتشر قطرات الدم الأحمر على حواف الجرح، ثم تتوالى الطعنات التي تكون أقل ألماً، ومع تواليها يتلاشى الألم، وتذهب الصرخات، وتتخدر الأعصاب. وحين تتوقف إندفاعة صاحبها وتخور قواه ويهدأ غضبه. تفتح عينيها فتختلط عليها ملامحه، لا تتعرف عليه، لكنها تشعر به رجلاً محبوباً ومشتهى. أخذت تلف بيديها الجرح الذي سرعان ما يشفى، ثم تلم قطرات الدم بمنديل وجدته قربها، سرعان ما دسته في صدرها، وفي الصباح كانت تتذكر الحلم، فتشعر بخليط من الألم والرعب والإرتياح.

\*\*\*

كأن السماء قد إنطبقت على الأرض فجأة، أو كأن الجبال قد هوت فوق صدره، يكاد يخنقه الضيق، ويكاد يشعله الغضب. يمر بركان للبقالة، فيشتري علبة سجائر، يشعل واحدة منها بسرعة، ويدخنها بنهم. هبات من الغيظ اللافح تلهب كيانه. يغذ السير ولا يدري إلى أين، حتى تسوقه قدماه إلى شاطئ البحر. لا يقوى على مناجاته ولا يستسيغ صحبته، فيستمر بسيره، عائداً إلى البيت، فيدخل غرفته ويغلق على نفسه.

لقد تأكد من أن سميرة قد كذبت عليه على غير عهده بها، وأنها تبتعد عنه، وهي التي كانت تتلهف لمرافقتها. لكنه تأكد أيضاً من حبه لها وغيرته عليها. لكن ماذا كانت تفعل في بيت الأستاذ؟ يتردد السؤال في ذهنه، ويبقى معلقاً في الهواء دونما إجابة. والمثير في الأمر أنها لم تكن وحدها هناك، أه إذا ماذا يمكن أن يفعل مثل هؤلاء هناك؟ هل يلتقون للدرس؟ غير معقول، ولو كان الأمر كذلك، لكان بإمكانها أن تجيبني ببساطة، حين سألتها. لكنها تلفظت بتلك الإجابة المخرجة والحاسمة، التي لا تخلو من القسوة ولكن لماذا؟

دقات خفيفة على الباب، أنه لا يريد أن يرى أحداً، لكنها أمه، التي تدخل عليه بحنانها، وقد شعرت من طريقة دخوله وإغلاقه على نفسه، بأنه مهموم لأمر ما. حاولت أن تبدد من وحشته، لكنه كان يشتعل غيظاً.

- ماذا بك يا حبيبي؟ أصنع لك كأساً من الشاي؟

- أه.. نعم

كانت الفكرة مناسبة له لأن يصرفها ويختلي بنفسه، تفلت منه نظرة إلى الجدار، يهم برفع قبضته، لكنه يتراجع. إنفعاله يمنعه من التفكير في الأمر بدقة. لا يقوى على المكوث هكذا طويلاً، فيخرج وفي ذهنه أن يتوجه رأساً إلى بيت الأستاذ. يريد أن يرى سميرة. أن يراها؟ ليس بالضبط، كأنه يود أن يقتلها، أن ينهال عليها، أن يشفي غليله منها.

كاد أن ينفجر في وجهها حين التقاها في الطريق، لكنه فطن أنه في الشارع، فسار بجوارها لا يتفوه بشيء، أما هي فقد شعرت بغضبه، وسكنت بدورها للحظة جال في ذهنها الأمر، محض الصدفة التي ساقته في طريقها هذا المساء، كانت صدفة خير، فهي قد دفعته إلى الأمر الذي لابد أن تواجهه به، لأن له علاقة بمستقبلها معاً، بل ربما أن هذا الأمر بالذات له صلاحية حسم علاقتهما. فرأت أن تقترب من الموضوع فابتسمت وقالت:

- خالد ألا زلت غاضباً مني؟

لم يرد فتابعت:

- معك حق. إني أعتذر.

- ولكن ماذا كنت تفعلين وسط كل هؤلاء؟

- هل تشك بي؟

- بالطبع لا. ولكنني أتساءل كيف فضلت صحبة هؤلاء على صحبتي؟ وأنا الذي كنت أنوي أن أقضي وإياك مساءً جميلاً، نتحدث فيه عنا وعن مشاريعنا.

- لم يفت الوقت.

- لكنني أريد أن أعرف.

- بالطبع ستعرف، لكن لا بد أن تكون هادئاً أولاً، وأن تكون محبباً و.. متفهماً.

- متفهماً لماذا؟

- هذا هو الموضوع.

- سميرة..

أشاحت وجهها مغتمة قليلاً، فانتبه لها، تدارك الأمر. ثم تابع في رقة:

- مهدي، هل تقبلين الزواج مني؟

- وهل هذا سؤال؟

- أجيبي.

- بالطبع أقبل، لكن الأمر بحاجة إلى بعض التفكير.

- التفكير؟ بماذا؟

- خالد ألا تلاحظ كل هذا الإشتعال الذي حولنا؟

- بلى، لكنه لا يمنعنا من أن نسير بحياتنا.

- هذا ما أريده أيضاً، لكن حياتنا تأخذ شكلاً آخر في ظل هذا الوضع.

- لست أفهم.

مع إقترابهما من مدخل الشارع، وليس بعيداً عن صالون الأصدقاء، كان الجو يختنق بالدخان الذي يتصاعد عن الإطارات المشتعلة، فانزوي خلف حافة الزاوية، وأطلا برأسيهما، فكان المشهد الذي صار معتاداً للجميع، وما كان عليهما إلا أن يغيرا وجهتيهما، فيدوران خلف الحارة، ويسرعان في

سيرهما حتى وصلا إلى بيتها، عرضت عليه أن يدخل معها فرفض ثم واصل سيره بعد أن تواعدا على اللقاء حين يهدأ الوضع.

\*\*\*

ينتابه الفرح وتغمره النشوة، ويكسوه الرضا، وهو يتحسس بأصابعه المرتعشة الثمر المنعقد، والذي تدلى من الشتلات الخضراء، كأنه وليد إنبلج عنه الرحم لتوه، مغسولاً بالندى الذي يزيد شهوة، ويبيت مشاعر لا حد لها في نفس الشيخ، حتى تكاد أن تترقرق الدموع من عينيه. هذه الحالة التي تنتابه كل عام في مثل هذه الأيام، تختلط فيها الذكرى مع الأمل في الحياة، وتبقي الأرض بطناً خصبة لا تكل عن الولادة الدائمة، وحدها الأرض التي تقهر دورة الأيام، وحدها الأرض التي لا تشيخ ولا تستسلم للموت، ما دامت هنالك أصابع حانية، حتى لو كانت ضعيفة مرتعشة. حالة العشق التي تسير في شرايينه لها، لا يفهم ولا يدرك مغزاها، لكنه يؤمن بأن هنالك صلة قوية بين الإنسان والأرض، وربما السماء أيضاً "إنا خلقناكم من طين". منها جننا وإليها نعود، هذه الأرض على حنوها لم تنس الشيخ يوماً أرضه الأولى، فيتحسس تلك الصرة التي لا تفارق جيب قمبازه الداخلي، كأنه حرز يستمد منه قوته، ورغبته في الحياة، ورغم مداعبات خالد المستمرة، فإنه لا يفتأ أن يوصيهم بأن يدفنوا كنزهم معه في مستقره الأخير. كنز؟

يهتف خالد ضاحكاً، ثم يقطع ضحكته رفقاً وتادباً بالشيخ.

يتحسس الثمر ويتأمل برهة، انه الطين ليس أكثر، حين يمتزج بالعرق والماء الذي يقطر علينا من السماء. رحماك أيتها السماء. "وجعلنا من الماء كل شيء حي".

- أبو محمود... أبو محمود.

يقترب صوت جارتها الأرملة

- الله يعطيك العافية، اجلس لنشرب الشاي.

يجلس الشيخ ويتناول كوبه بعد أن يمسح قطرات الندى التي علقت بيديه على أطراف قمبازه، وينصت إلى حديث المرأة، ثم يضع الكأس جانباً ويخرج علبة سجائره، ويبدأ في لف سيجارة. تجيش في نفسه ذكرى الطفولة والشباب، ويفكر في الحال التي صار إليها الناس. ييزفر آهة أخرى تخرج من صدره، ترافق الكلمة - الله يرحم هذيك الأيام.

\*\*\*

اشتعل الاضطراب في نفسه، فملأته رائحة الدخان، وسرت في بدنه حركة الأجساد الطرية وهي تظهر بغتة من بين الدور فترشق الحجارة، التي تنصب على رؤوس الجنود المدججين بالبنادق التي

كانوا يطلقونها في ذعر، فتوزع نيرانها في كل اتجاه، ما كاد يدخل عتبة باب البيت حتى احتضنته أمه، هرع إليه جده، ثم جلس ثلاثتهم، يلفهم الصمت والوجوم، يصيخون السمع إلى أن أقبل الليل.

يتقلب الفتى في منامه، يفكر بأمر مهد، تلك الحبيبة التي ما كاد أن يقترب منها، حتى ابتعدت عنه، لا يفهم من أمرها سبباً. ما الذي يجمع هؤلاء في بيت الأستاذ، وبينهم مهد، التي كانت ما أن تلمحه في مكان ما، حتى تندفع إليه برغبة الحب، الذي ما زال يجده عندها، لكنه يكاد ينفطر قلقاً على ما يبدو أنها تخفيه عنه... يستعرض حوارهما معاً:

- أتقبليني زوجاً؟

- بالطبع أقبل... خالد ألا تلاحظ كل هذا الاشتعال الذي حولنا؟  
آه... يالي من غبي، أياكون هذا هو السبب؟ أتهتم مهد حقاً بهذا الذي يدور في المخيم؟ ولم لا؟  
واستعرضهم واحداً واحداً، أيهتمون هم أيضاً بهذا الاشتعال؟ ما كاد يسلم أمره للنوم، حتى رأى في المنام طائراً ضخماً يحط بجناحيه في باحة بيتهم، ثم ينقر باب غرفته، حتى يصحو، ثم يسحبه من قميصه ويلقي به على مدخل المخيم. بعد لحظات تأتي من البعيد آلية ملأى بالجنود. يصوبون بنادقهم نحوه، ثم يطلقون النار، ينفر الدم من كل أنحاء جسده، يطلق صرخة تملأ الأفاق، وفي لحظته الأخيرة من الحياة، ينشق صدر المدى عن رجل تلقي به الريح على صهوة جواد أبيض، ينطلق إليه فيأخذه في حضنه، يتطلع إلى وجهه يهتف :

- أباي؟ أخيراً عدت.

ثم يسلم الروح.

صحا من نومه. تحسس جسده، كانت الدماء تسعى حارة فيه، ولم تكن به أية ثقب، تطلع إلى الجدار، كانت الصورة على حالها. قرر أن يذهب إلى مهد ليقف على حقيقة أمرها، لكن هاتفاً بداخله يدفعه إلى ان يذهب إلى مكتب البريد. يفتح الصندوق، فيجد رسالة غريبة بلا عنوان ولا توقيع، تحمل خبراً مقتضباً يقول:

- سأحضر قريباً.

قرأها عشر مرات، ثم دسها في صدره، وشعور غريب ينتابه، كان أقرب إلى الذهول. واصل سيره إلى حيث قرر ان يذهب في الصباح. حين غادره الفرح الطفولي، فكر في الأمر، فوجمت نفسه، واغتمت، ثم أطرق وردد في داخله:

- على أي حال هذا أفضل، مهما كانت النتيجة.

علا الصباح فجأة و تردد "الصفير" من على أسطح بعض المنازل، تشابكت أزقة المخيم من حوله فما وجد نفسه إلا وسط جمع من الفتية يشدونه إلى شارع فرعي، يسرعون إلى أكوام الحجارة، حيث توجد النسوة، ولم ير إلا يدا , لم يتبين ملامح وجه صاحبها، تعطيه مقلاعاً، وبدأ أخرى تتقدم إليه بطشت الحجارة تبين وجه صاحبته، الذي ابتسم له، ابتسامة اغنته عن الحوار الذي عزم عليه، وأنهت حالة القلق التي رافقته طوال ليله، وفهم منها كل شيء.

ما ان غابت الشمس، حتى كان مطارداً، كواحد من فتية المخيم، ينتقل من سطح لسطح، إلى أن انتهى وياهم إلى بيارة تقع على كتف الوادي، خارج المخيم، كان قد جاءها يوماً، ونام تحت شجيراتهما، يؤنسه ضوء القمر، فيرى على صفحته وجهاً مشرقاً، ما غاب عن خياله لحظة.

وهكذا تواصلت أيامه بعد ذلك، من بيت إلى بيت، ومن بيارة لأخرى، لا يعرف للنوم مهجعاً، ولا للنهار قيلولة، لكنه يشعر برضا ما شعر بمثله من قبل. حتى كان يوم جاءته فيه مهد، فقرأ الفاتحة معاً، ثم صاراً زوجاً و زوجة أمام الله.

حين أعلنت النبأ على أمه وجده، أطلقت الأم زغرودتها التي حبستها في صدرها أكثر من عشرين عاماً، وضمت الصبية إلى صدرها، أما الشيخ فقد تأمل صناديق الثمار المنذاة، التي أعدها لسوق الصباح، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، ثم اقترب من عروس ابنه، فقبلها في جبينها ودعا لها بالخير، ثم دلف إلى حجرته بعد أن ودعت الصبية آية إلى بيت أهلها، فاختلى بنفسه، وفتح صندوقه، ثم أخرج منه الساعة التي رافقته منذ هجرته الأولى، تأمل عقاربها التي تسير ببطء كعادتها، تذكر جرسها الذي لا بد أن يدق في ليلة ظل يرقبها أربعين سنة، رف عصفور قلبه، فقد اعتقد أن اللحظة قد باتت وشيكة، ثم أضاء سراج الزيت الذي رافق عمره، فلا يسهر ليلة ولا يأوي إلى فراشه إلا على ضوءه.

اندس في فراشه يراقب وجه القمر الذي لم يره طوال عمره مشرقاً كمثل هذه الليلة، وما كاد ان يغفو، حتى صحا على صوت دقات خفيفة، ظن للوهلة الأولى أن ساعته التي وعدته قد دقت أخيراً، لكنه ما أن فتح عينيه وقد ملك وعيه، حتى علم ان الدق إنما كان على شباك نافذته، نهض متثاقلاً، ثم سأل بصوت خفيض مرتعش:

- من؟

حتى كان الفتى يقفز من فوق السور، و ينتصب أمامه ثم ينكب على يديه يقبلهما و يقول:

- لم أشأ أن أزعجكما فأثرت أن أعلن عن مجيئي، ففقت بالدق ولو قفزت من دون ذلك لربما أفر عتكما...

قبل أن يتم كلامه، كانت أمه قد انضمت إليهما، واندفعت إليه تحتضنه وتبكي.

- ولكن يا بنى ما الذي دفعك إلى المخاطرة والمجيء؟ ألا تعلم...  
ارتمت يده على صدره، وهم بأخبارهما، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة. تطلعا إليه بنظرتين كأنهما تنتظران منه الإجابة، فتدارك الأمر خوف أن يرتابا به، وصاح في دعابة:

- يا أم خالد اين شايك؟ لقد اشتقت إليه، ثم دخل إلى غرفته وتطلع إلى الجدار:

- أبى يا من لم تراني ولم أراك، يا من أعرفك، وربما أيضاً إنني لا أعرفك، لكنك لا تبتعد عني لحظة، أراك كلما تلفت حولي، وأينما ذهبت، من الذي يخفي أمرك عن الآخر؟ أتراهما قد أخفيا أمرك عني؟! أم تراني أنا الذي أخفي أمرك عنهما؟ ما هي حقيقتك؟ أتراك موجوداً، تعيش في مكان ما؟ أم أنك مجرد وهم؟ اخترعتك لأسد حاجتي إليك؟ أنت رجل؟ اقصد كأى رجل؟ لا... لا يمكن ان يكون الأب مجرد رجل أنه كتلة من الحنان، وحين يكون كذلك فإنه لا يمكن ان يترك عائلته عشرين عاماً، دون ان يمد إليهم أعصابه، أنفاسه، شرايينه، دون ان يتنفس في وجه ابنه، فيملأ رئتيه بالرضا و السعادة.

ثم بعصيبة جامحة، دس يده في جيب قميصه، واخرج الورقة، ثم مزقها تنقفاً... تنقفاً، وألقى بها في وجه الصورة على الجدار، وغادر غرفته، متوجهاً إلى حيث جده، وقال برفق:

- أبي سأنام عندك هذه الليلة، فلي معك حديث.

بعد أن حدثه عن كل ما مر به خلال أيامه ولياليه التي قضاها خارج البيت، قال له وبدون مقدمات:

- أريد ان أتزوج .

ما ان سمع الشيخ هذه الكلمات حتى فاض وجهه بالبشر ثم قال:

- ومن تكون سعيدة الحظ؟

- ومن تكون غيرها؟ إنها سميرة بالطبع.  
هم الشيخ بالنداء على كنته، ليزف لها الخبر، لكن الفتى طلب منه إرجاء ذلك إلى الصباح، فالمرأة لو علمت بالأمر، لأقلقت الحي بزغاريدها، ولما استطاعت النوم من شدة الفرح.

- لكنك مهموم يا بني، فما الذي تخفيه عنا؟  
الشيخ يفهم الفتى، ويعرفه جيداً، وطوال حياته كان في حضنه، يحنو عليه وحين يكون مهموماً، يظل يلح عليه، حتى يفرج عنه همه، لذلك ظل الفتى يشعر به جزءاً من كيانه، لكنه كان دائماً يتمنى لو لم يكن جده، ويتمناه لو كان أصغر عمراً وأقوى همة وأن يظل جداً وليس اباً وجداً في آن معاً.

- لا عليك يا بني، المهم أن تعد نفسك لليوم الذي انتظرته طوال حياتي، حيث سأرخص كما نذرت لله ، وسأفرغ ما في صدري من عتابا وميجنا، وبعد ذلك لن أتمنى سوى شيء واحد...

وكبا الشيخ في غلالة من الحزن المفاجيء، فاعتقد الفتى ان الشيخ ينتظر مثله، لكن صوت جده الذي انساب مترافقا بالأسى، وكأنما عرف ما يدور في نفس الفتى، صاح:

- كنت أتمنى أن أعيش طويلاً وان أرى أحداثاً سعيدة تفرحني، لكن دورة الحياة لا بد أن تأخذ مداها، اترك هذه الأحداث لك ولأبنائك وربما لأحفادك، أما أنا فكل أمني الآن ان تحمل يابني نعشي وان تحسن مثواي، وان تتذكرني بالخير وتنقل سيرتي لابنائك وأحفادك من بعدك. وهكذا إلى أن يعتدل حال الدنيا، ويحيى يوم يقضي الله فيه أمراً كان مفعولاً، ينبلج فيه النور من القبة المقدسة، فيعم بأرجائه الأرض، وتفتح فيه صدور الناس، ويسعد الملاء، وتمتلئ في الأزقة بهمهمات الشهداء، الذين يظهرون لحظة تكون ما بين المغرب والعشاء، في ليلة من ليالي الربيع، يرتدون ثيابهم البيضاء، فيعم لونها شاطيء البحر وشطرا من صدر السماء، ندفاً من الثلج الأبيض الدافيء، الذي يهطل كقطع القطن التي تمتص ما في هذه السهول من عذابات، ويبقى العرس السماوي، حتى ينتصف الليل، فيودع الشهداء أهلهم، ويتركون وراءهم سرباً من الحمام، يعود في الوقت إياه كل ليلة، إلى ما شاء الله من الوقت.

احتضن الفتى جده برفق وبحنو بالغ، وانهمرت دمعته من عينيه وصاح:

- أطل الله في عمرك يا جدي حتى ترى أبنائي وأحفادي، وحتى ترى رايات الحرية تعلو فوق سهولنا وروابيها، لتشارك في حلقات الدبكة وأعراس الدلعونا وحلقات الربابة والبرغول.

ثم أسدل الصمت عباءة الراحة على نفسيهما، فغاص الفتى في نوم هانيء عميق.

\*\*\*

كانت تتقلب في فراشها، تدور في ذهنها أمور شتى، فهذا خالد أمل حياتها، ونخرها في الدنيا، ملاحق من سطح إلى سطح، ومن حارة إلى حارة، يتهدده ما يتهدد كل الشباب، وقد يعتقل مثلهم، حيث سيضربوه وسيعذبوه، ولن تراه أسابيع أو شهوراً، وقد... ارتجفت و شهقت أعماقها لورود الخاطر إلى ذهنها، لم تقو على التفكير بمثل هذا الاحتمال. ثم ها هو في هذه الظروف بالذات يفكر بالأمر الذي طالما حلمت به، يفكر بالزواج من العروس التي طالما رأتها بثوبها الأبيض إلى جواره، وما يتطلبه ذلك من إعداد ومن مصاريف، وهي في وحدتها ومعها الشيخ الذي لا يقوى على فعل الكثير، تواجه هذا الأمر، ثم هذا الذي يشعل نيرانا طالما نجحت في إخمادها بوده وكرمه، وعشرته ونظرته الراضية، المحبة، التي لا بد ان تفصح يوماً عن رغبتها.

وما زلت أنت - وتطلعت إلى الجدار - تغوص في غياهب المجهول، تبتعد عنا، وكأن الغربية قد راقت لك، ولا تعلم ان البعيد عن العين بعيد عن القلب، ثم جاهدت المرأة أفكارها، قبل أن يكمل الصمت إسدال عباته على كل من في الدار.

\*\*\*

الصمت ينيم هانيء البال، و يعجز عن فعل ذلك مع رجل طعن في السن، وما عاد يقوى على طول الانتظار، فتدور الأفكار في رأسه و يقلب أمره فيحدث نفسه في لوعة وأسى:

- أي بني، سنوات طويلة وأنا أكتم همي، مخافة أن أصيب روح هذا الفتى الذي هو نور عيوننا وأملنا وكل ما تبقى لنا، حتى بات يظن أنه وحده الذي يفكر فيك، ويفتقدك ولا يعلم حقيقة الآمي، ولا يدرك أن قلبي ينفطر شوقاً لك ورغبة في رؤيتك، وفي إلقاء كاهل شيخوختي بين يديك، وأنت فلذة كبدي الذي أنجبته ليأوي عجزى ويعيل كهولتي، و يحمل نعشي إلى مثواه الأخير. حتى وجدت خط العائلة يتوقف عندي، فبتشتت شملنا ويلقى بنا خارج وطننا، وتضيع أنت، فأية نفس يمكنها أن تحتمل مثل هذا، وأية روح يمكنها أن تقوى بإيمانها على مواجهة كرب كهذا؟ أي بني وأنت تعلم عذابي إن كنت حياً، و عذاب زوجك وتوق نطفتك التي ألقيت بها في رحم تلك الصابرة ثم اختفيت، لو كنت حياً لكنت ابناً عاقاً، ولكنت زوجاً جوداً، وأباً قاسياً. وإن كنت ميتاً فلا عليك ولا علينا، نحتمل مشيئة الله في صبر و نواصل خط العائلة بأناة، ثم نستمر في الحياة ما استطعنا إليها سبيلاً. أي بني فأنبئني أنت حي تسعى في الأرض أم أنك إلى جوار ربك ترقد بسلام في السماء؟ أي بني أنت طيف مر بنا وغاب؟؟ أم أنك إنسان مثلنا تحس وتشقى؟ أي بني، ألا يمكنك أن تجيب بكلمة، أن تجيء للحظة؟ فإما في المنام وإما في عز النهار. أصلي عليك؟ أم أدعو الله لأجلك؟ أزوج الفتى دونك؟ فينجب لي حفيداً ويكون لي ابناً عوضاً عنك، أم تجيء فتزفه بيديك؟

يغض الشيخ عينيه، ويهدأ لحظة، ولا يقوى على رد الدمع الحار الذي ينسل من مقلتيه، فيخرج مندبله ويمسحه، ثم يندس في الفراش، بعد أن يطفىء ضوء القنديل، فتطبق الظلمة من حوله، ولا يرى إلا الخيالات تطوف بذهنه، يجفوه النوم، فيدخل في حالة من الأرق، لا يقطع فيها إن كان ما يراه هو ما يتخيله ذهنه المرهق، أم هي المنامات وأطياف الحلم، كل ما تتأكد منه نفسه، أنه رأى ابنه، وقد جاء في لباس عسكري، يمتطي صهوة جواد أبيض، يتمنطق سلاحه وعتاده كما رآه آخر مرة أيام الحرب، حليق الذقن، مبتسم الحياء، شائب الرأس، حتى إذا ما التقاه، ارتقى في أحضانه، وقبل رأسه، ثم فتح فمه وقال:



- هذا أنا يا أبي قد جئت، كما أردت، فارتح أيها الشيخ وهون عليك.

ثم أخذ يحدثه عن تلك السنين التي عاشها في الغربية، يسعى إليهم، تصده الأشواك والفيافي والجنود، وتقف في طريقه الحدود والاسلاك الشائكة والمكهربة وحقول الألغام. يحدثه عن قسوة المنفى وعن مرارة الانتظار، وعن رهبة المحاولة، يحدثه عن رفاق الغربية، وعن رفقة الجبال والنباتات البرية وعن فاشية الاعداء وعن... وعن... والشيخ ينصت كأنه في حلم جميل، حتى كأن صوت ارتطام مفاجيء بالباب، انتهى بفتحه، وبدخول مجموعة من الجنود، الذين انقضوا على الرجل وكبلوه بالحديد، بعد أن أشبعوه ضرباً، غير عابئين بارتعاشات الشيخ وتوسلاته. ثم خرجوا به إلى حيث سيقى الشيخ بعد ذلك يحمل كل ما اضافته الأيام الأخيرة من أعباء تنوء عن حملها الجبال، على كاهليه فيسير بقدمين لا تكادان تثبتان على الأرض، يسعى إلى رؤيته والحديث إليه من وراء القضبان ما تبقى له من أيام قبل أن يحتضنه الثرى الذي اغترب إليه، واحتمل غربته على أمل أن يعود يوماً ويلقي بعظامه إلى جوار زوجه وأبيه وجدّه تحت التينة العجوز في باحة دار العائلة، فتحلق روحه بعد أن تنضم إلى أهلها فيجيء من يسلم من الأحفاد ويقرأ عليهم جميعاً الفاتحة...

\*\*\*

خيم الهدوء فجأة، وسكن الضجيج، فارتخت أعصاب الناس، وهمدت أهداب الفتية بعد أن أرّقتها السهر، ثم وصلت الازقة ما تقطع من أنفاسها، وتلاشت دوائر الدخان التي تحلقت في السماء، وكان الله قد بسط كفه في لحظة نادرة، فسار العاشقان إلى شاطيء البحر، وقد خلفا من ورائهما علب الصفيح التي انتشرت على صدر المخيم كمربعات الشطرنج بعد أن تأملا طاباتها واحصنتها تأخذ أماكنها في انتظار الجولة التالية.

وضعت ذراعها في ذراعه والتصقت به إلى أبعد الحدود الممكنة، تهفو بأنفاسها على وجنته، فتوزع النشوة في أوصاله، ثم تبادره بهمسها:

- أنت يا بحر، كم كنت أخشى أن أغرق فيك، فصرت أموت رغبة بذلك.

- يتوثب غيرة، ويقول:

- تقصدين البحر؟

فتجيب:

- أنت البحر، السماء، الأرض، والناس، كلكم واحد يا خالد.

- أرجوك كفي عن الحلم.

- ماذا؟ وهل يتبقى لنا شيء إذا؟

- أنت. أنت وأنا وما يمكن أن يكون بيننا، ذاك هو الحلم يا مهد، أراه كومض من نور يشق صدر السماء، ثم ينزع في الأرض، لا يتزحزح، يبقى شيء منا، يستمر في هذه البقعة من الدنيا، أما نحن فكأننا مجرد خيالات، أو ظلال، بل كأننا أشبه بالذكري، شيء كأنه خيط من الضوء يمر في

لحظة، نمضي نحن ويبقى هذا الخط الذي يحملنا، يبقى فعلنا، تبقى أنفاسنا، أرواحنا، بل حتى مشاعرنا، يبقى كل شيء منا، أما نحن فسائرون على طريق تمضي. حتى البحر سيكون غير البحر، والأرض ستكون غير الأرض، أترين: بل حتى السماء لن تكون هي السماء، حركة دائية، وفعل مستمر، وبشر ماضون، تفاجئهم اللحظة التي لا ترد، ولا يبقى سوى ذلك الوميض الذي يلمع فجأة، فنعتقد أنه قد اختفى، وفي حقيقة الأمر هو أبقى منا.

- ماذا تقول لست أفهم شيئاً؟

- إنني رجل أمامك بشحم ولحم ودم. لكن الأهم من ذلك أنني كتلة من الأحاسيس والمشاعر، ولا أراني سوى قبضة من الشعور، ينقبض في لحظة لينتهي بومضة، فاخفتي أنا، وتبقى هي. وأراني أسعى إليك برغبة متقدة وأكيدة، لنبرق معاً، بعد أن نتوحد، وكل ما أسعى إليه، أن أوفق في التوقيت، بحيث لا تلتمع ومضتي قبل أن يثبت بريقها، أود أن أسرع إليك في اللحظة المناسبة، فحين تومض لحظتي تخبئنيها في صدرك، تحفظين خط وميضها، كنجمة ثابتة في السماء.

- أنت، لقد أرعبتني، ماذا تود أن تقول؟

- ما أود فعله، هو أن نتزوج في أقرب فرصة.

- وهذا الاشتعال؟

- بالرغم من هذا الاشتعال، بل من أجل هذا الاشتعال. حين تكون دماؤنا أشبه بزيت لهذا الحريق، فإن كل شيء يصير مفهوماً تماماً. الومضة/ الشعلة، والدم/ الزيت، وهكذا يستمر الحريق. كانت تشاركه الرغبة بالزواج في أقرب وقت ممكن، لكنها كانت ترغب أيضاً في بيت خاص بهما، تلفه السكينة، ويملاه الهدوء، يكون أشبه بعش لعصفورين.

وكانت تحلم أيضاً بزينة خاصة وبعرس يظل عالقاً بالذاكرة، ويثوب أبيض، وحفل تملأه الزغاريد والأغاني، ويحضره كل أهل المخيم، ترقص فيه الصبايا، ويدبك الشباب، وتلوح النساء أمامها، وهي تجلس إلى جانب عريسها، على منصة الزفاف. كانت تحلم بليلة واحدة من العمر، ترى فيها جميع الناس يرقصون من أجلها.

أقفلت عليه جوانحها، وتكورت في فراشها، احتضنت وسادتها، وراحت تتابع أنفاسها التي تعلق بصدرها، ثم تنخفض به في حركة واضحة، حركة الانفعال تثير فيها الرغبة، فتمد يدها خلف رأسه وتشد إليها، ثم تضع فمها على فمه، وتغلق عينيها، فتذوب في حلاوة القبلة.

- خذني إليك يا حبيبي.

هالة تشبه الاغماء تلك التي تنتابها، تأخذها لحظات إلى ما وراء السحاب، وحين تصحو تجد العرق قد أغرق جسدها، تلفظ آهة عميقة من صدرها، ثم تشد غطاءها حتى تغمر جسدها كله، الذي صار مشبعاً بالخصوبة، تغطي رأسها، ثم تهوي في نوم أشبه بالموت.

\*\*\*

لم يفاجئه الاقترام صباح يوم كان الاله في حياته، على الرغم من قسوته، لكن نظره توقف أمام تلك الندبة تحت الأنف، وتحتها فوهة البندقية مصوبة إلى صدره.

ها أنت قد جئت من أعماق البحر البعيد، الغريب بهذه الفوهة، تواجه نبض هذا القلب الذي يرف كعصفور طالما تطلع إلى الأفق راغباً بمستحيل الحياة، نبض يواجه الانفجار، وحلم يقابله العبث، بحر يلطم البحر، وسماء تطبق على السماء.

ما زالت حلاوة ليلته تبت في كيانه رغبة عارمة بالحياة، وما زال البحر يمتد في أفق الذاكرة، مجالاً فسيحاً أمام المخيم، الذي انسد ظهره بحاملات الجنود، حقلًا للأفق المليء بالقوارب والأصداف وعرائس البحر، وما زالت مهد بأنوثتها الطازجة تثير في نفسه ذكرى اللحظة التي مضت كومضة، كلحظة بالعم، سعادة ممكنة وحياة متخيلة ومرغوبة، تمنيه أن يعيش قرناً ولا يشبع منها، والبحر صديق واسع الصدر، ممتد القدرة، لكنه عاجز عن أن يكون عشاً صغيراً لعصفور يرتجف، انقضت عليه فجأة كف غليظة، لم تستطع كل رغبته العارمة بالحياة، أن توقف قسوتها ولا أن تمنعها من أن تحط بالموت على صدره، وأن تفرض السكون على جناحيه الصغيرين، فلا يحلقان به في السماء، ولا يحيطان به على حافة الغدير، وأن تفرض الصمت على فمه الصغير، فلا يبث التموج العذب في فضاء الحقول.

تضيق الدنيا على رحابتها ولا تكون سوى قبضة كف غليظة تنطبق على صدره المجهري، وتخلو من الحياة.

انشقت الأرض في لحظة نادرة عن غريبة، وقد أخذت تركض وراء سيارة الجيب. تود لو تأخذه في حضنها، تدير الندبة اتجاهها وتصوب الفوهة، يترنح الهيكل المكود ويتكور على نفسه، فتحضن الغريبة ذاتها، وتتطلع بعينين مذعورتين إلى الأفق. تمد يديها، كأنها تسعى لانتزاع الندبة من صدر الأفق الذي انحسر وضاق من أمامها، حتى غامت الدنيا، وامتدت الدائرة السوداء تحت الأنف فملأتها، فما عادت ترى شيئاً سواها، حتى أغلقت عينين شهدتا كل التفاصيل، وطبعتا لون الدم الحار، في اندفاعته الأولى، حين تواجه صدور العصافير ندب المطاط، بعد أن يقذف بها فعل الانفجار.

توترت أعصابه للمشهد، وفارت دماؤه، فهم بأن ينهض من مكانه، ليسحق ندبة الموت بأغلاله، لكن أعقاب البنادق ردت إلى مكانه مصحوباً بالأمها التي خلفتها في زواياه المختلفة.

مشاهد وكوابيس تتراءى له في صحوه وفي نومه، فلا يكاد أن يتبين الحقيقة من الوهم. دم حار وغبار يلف الأفق، دخان أسود يملأ الفضاء، هموم تثقل الصدر، ولا من أفق سوى ذلك الذي ينبعث من ثغر مهد، ينفرج عن ابتسامة مقتضبة، يلوح كقرص الشمس الأزرق، يهرول نحوها... ثم يركض، وهي ثابتة في مكانها، فلا يطالها، يمد يده، فتصرعه الأمواج التي يغالبها، ويبقى ثغرها عصياً عليه... لا يكف عن المحاولة حتى يكاد أن يبلغه التعب، فيتصبب عرقاً، وحين يشرف على الوصول... تقف أشباح ذات ندب تحت أنوفها بينه وبين قرص الشمس، تطوقه أذرعها وتشل حركته اغلالها، ثم يهجم بعضها على الملاك الأبيض، فيمزق ثوبه الذي نسجته يد الآلهة من خيوط الضوء. ينبلج اللحم الطري الذي ما رآته عين قط، وتطرحة أرضاً، ثم تثبت بأطرافه المسامير وتبدأ تدقها بمطرقة، ترتفع اليد الهائلة ثم تهوي، فينغرس في صدره الألم، وينفر الدم الحار من صدره. ثم ينطبق جسد وحشي ضخم على اللحم الطري، فيشعر كأن خازوقاً قد دق في مؤخرته، يتلوى ثم يصرخ... وحين يعلو الصوت، ترتعب الأشباح، وتختفي في لحظة. يتحرر من اغلاله، ويهدم في ذات اللحظة زبد الموج، فيهرع إلى اللحم المغتصب، فلا يجد سوى رمال بيضاء، مرت عليها مياه البحر، فمنحتها الطراوة ورائحة الزنخ، ثم تركت عليها بعضاً من الأصداف وبيوض السمك.

حين يصحو، يستعيز بالله من هذا الكابوس، ويصر بعزم لا يلين في حوارهِ مع مهد على الإسراع بتحديد يوم الزفاف...

بعد الصلاة في يوم الجمعة، يتجمع أهل المخيم في ساحة الملعب، فيعقدون حلقات الدبكة، ترقص الصبايا ويلوح الشباب بنقافاتهم، ثم يطلقون واحداً وعشرين حجراً تحية لعروسي الانتفاضة. مع مغيب الشمس تبدأ الزفة حاملة العروسين على أكف من الحنان إلى عشهما.

مع دقة الساعة معلنة السادسة من مساء العرس، تتحرك الآليات من الثكنة الرابضة ككلب الحراسة على باب المخيم، لتقرض حظر التجوال، فتصير ساحة الملعب في لحظة خاطفة ساحة قتال.

خالد يجلس بفرح إلى جوار ملاك هبط قبل لحظة من السماء، يلبس ثوبه الأبيض، وتثع من جبينه أشعة الشمس قبل أن تغيب. يكر الجند، يفر المثلثون وتتطلق البنادق بندباتها التي تحط كطيور الموت على الصدر المنتشي بالفرح، انفجر المخيم وصار كتلة من اللهب، وبحراً من الدماء، وحين صحا على عرسه، وجم البحر، فإذا الملاك يرف بجناحيه، يحتضن الفتى الذي أثقلت جفونه رعشة عابثة، وأثقلت أعضائه خدره بدأت تطيح بقسوتها على الرغبة العارمة بالحياة. في حضرة الموت كانت مهد عروساً لم تشهد الدنيا مثيلاً لها، تلة من تلج تكومت على بقع الدم الساخنة، ثم تكورت حتى صارت كقبضة صارمة، تنبت فيها الأصابع التي تبدأ حركة لولبية دائبة، تشم شهيداً، فتملاً رائحة الدم الفائت كيانها بنشوة الحياة، تقبله، فتدب فيها الرغبة فيه، تتحسس جسده، فتنقل إليها الحياة المندلقة من عروقه، وكأنها لم تنسكب على التراب، بل انتقلت بومضتها إلى عروقه، تتوتر أعصابها، فتلوح أطرافها وتدندن بأغنية البعث.

تننشي، وتشعر كأن طيراً يخرج من أحشائها، وحين تزفر آهتها، يخرج الدخان من جوفها وتتلاقى خيوطه، تحلق دوائرها في فضاء البيت، كأنها الروح التي تحررت من كل القيود، وقد تشكلت على هيئة طائر الفينيق الذي انبعث من رماد جوارحها الثكلى. تتحسس جسده، ثم تلتصق به، فيلتحمان معاً.

إنه زوج مكتمل الرجولة، يرتفع برغبتها إلى الذرى، وكأنه يحلق بها إلى السماوات العلاء، ترتخي بعد لحظة، فتشعر براحة لم تشعر بمثلها من قبل. كانت ليلة من نور، فلم تقض عروس من قبل ليلتها الأولى، كما حدث مع مهد، التي حلفت بها الرؤى وطافت بها الفراشات آفاق السماء، وجابت بها مدايات البحار، وساحت بها أطراف الدنيا، حتى شبعت نفسها من رؤية التلال والكروم والسهول والصحاري، وكأن الوطن قد صار بقعة من زيت، ترى فيها كل الأحبة، وتتجول فيه مع رجلها وأولادها بحرية واطمئنان، ثم يعودون إلى بيت تغمره السعادة، امتدت الليلة الواحدة، حتى غدت كدهر من السنين، أو كحظة خاطفة لا تكاد تستقر في النفس حلاوتها حتى تنطفيء، تماماً كومضة الضوء التي ما تكاد تبدد حلقة العتمة الموحشة، حتى تدوب في جبروتها، هكذا كانت ليلة مهد الوحيدة التي قضتها كزوجة.

وفي الصباح ترافق زوجها، ومعهما المشيعون، أهل المخيم، ما زالت عروساً مخضبة أكفها بالحناء، ترتدي ثوبها الأبيض المزين بالبقع الحمراء، فيبدو كواحة الثلج، نبتت في ثناياها أزهار الحنون البري، تسير كروح لا كنه لمشاعرها العاجزة عن أخذ ملامحها المحددة، لا تدرك الجلبة ولا ترى سوى الأفق الذي امتد ضبابياً أمامها، وليس سواه يسير وإياها. . إلى أن تظهر حمامة حدثها يوماً عنها، وكأنها قد خرجت من النعش، ثم حلقت فوق الرؤوس برهة من الوقت، ثم كان التراب يطوي فتى كان مغرماً بالحياة.

كطيف بياغتك فجأة، أو كحزمة من نور، بدت لها ملامح الصورة المؤطرة بالسواد، والمعلقة  
لتوها على الجدار. يفتقر الثغر عن ابتسامه، قابلها بها صباح يوم فاتحها فيه بحبه، يحرك يداً باعتذار، ثم  
تسكن حركة الاطار التي مرت كومضة، تشعر بحركة عابرة في أحشائها، تتحسس بطنها يمر بذهنها  
خاطر ما، تدور الأرض بها، ثم يغلبها القيء.

